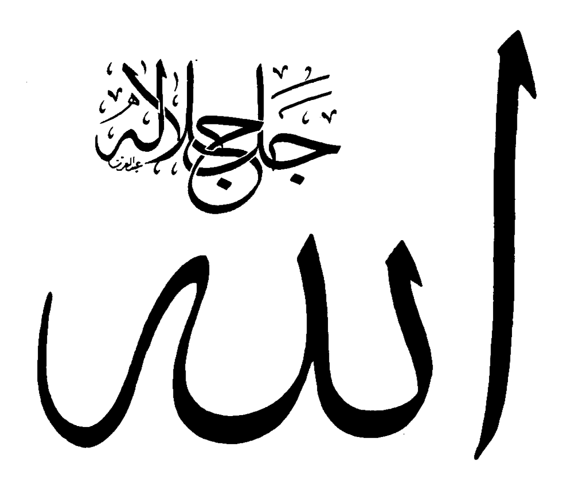
دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله، الرسول، الإسلام



الله جل جلاله

« إذا قرأت هذا البحث سترى أن أعظم حقيقة يثبتها العلم والعقل بما لايقبل الجدل هي وجود اللّه ، وأنه لا أحد فى هذا الكون يعرف اللّه حق المعرفة غير المسلمين » .

سعيد حوى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

اسم الكتاب:
الله جل جلاله
الطبعة: الخامسة.
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م
اسم المؤلف:
الشيخ سعيد حوى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة
مقاس الكتاب: ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ١٠٠٧٩ / ١٩٩٤
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-225-062-4

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

الحمد لله . . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وآله وصحبه وسلم .
وبعد . .

فهذا الكتاب أردت به بيان الأصول الثلاثة التى لا يكون المسلم مسلماً إلا بمعرفتها والإيمان بها ، وكنت فيه جامعاً منسقاً أكثر منى مبتدئاً مبدعاً ، فقد لاحظت أنه قد كُتِب الكثير فى كل أصل من هذه الأصول الثلاثة ، بل كُتِب الكثير فى كل جانب من أصل ، دون أن يكون هناك بحث جامع لهذه الأصول . فأردت أن أسد هذه الثغرة بكل ما أوتيت من طاقة ، وكنت إذا ما وصلت إلى بحث كتب فيه غيرى كتابة جيدة لا أرى مانعاً أن أنقل ما كُتِب أو جزءاً منه ، وقد أشير إلى الأصل أو لا أشير . وفى كلتا الحالتين يكون هناك سبب ليس من الضرورى أن أذكره الآن ، فلا يستغربنَّ القارىء إذا رأى فى الكتاب كثرة النقول ، فإن حرصى على إبراز الفكرة كان أكبر من حرصى على أن يمدح مادح ، أو من خوفى أن يقدح قادح .

* *

ويقول عليه الصلاة والسلام : « مَن قال : رضيتُ بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد – صلى الله عليه وسلم – نبياً وجبت له الجنة » . وقال : « ذاق طعم الإيمان مَن رَضِيَ بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً » .

وهذا الكتاب « **الأصول الثلاثة** » تحدَّث عن الذات الإلٰهية حديثاً يمحو كل شك بإذن الله ، ويزيل كل شبهة ، ويدحض كل إفك ، ويصل بالإنسان إلى الرضا بالله ربّاً .

وتحدَّث عن رسول الله ﷺ حديثاً يجلو به شخصية هذا الرسول العظيم بالإقناع والبرهان اللذين يجعلان الإنسان على مثل الشمس وضوحاً ، بأن رسول الله ﷺ هو أعظم مظهر للإنسان فى كل جانب ، كما جلا أدلة رسالته بالشكل الذى لا يسع العقل إلا أن يؤمن .

وتحدَّث بعد ذلك عن الإسلام : عقائد وعبادات ومناهج حياة ومؤيدات ، مبيناً كلياته ، مظهراً جزئياته ، موضحاً أصوله وفروعه ، مقيماً الحُجَّة على الناس فيه ، بحيث لا يسع الإنسان أن يتركه إلى غيره .... ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (١) .

ولن ينتهى الإنسان من الدراسة إلا وقد ارتاح قلبه ، واطمأن ببَرَد اليقين إذا رغب فى الحق وشاء الله له الهداية ، وإلا فكم عقل زاغ عن الحق وهو يراه. إن هذا الكتاب نقطة البداية لميلاد جديد لإنسان يريد الخروج من ظلمة الشك والحيرة والضياع والتشتت والتمزق والفوضى .

ويلاحظ قارىء الكتاب أننى وقفت وقفات طويلة عند الأصل الأول « **الله** » والأصل الثانى « **الرسول** » مناقشاً ومعللاً ومبرهناً ومقنعاً وعارضاً المسألة على وجوه ، معتمداً خطاب العقل بأناة وصبر ، وملاحقاً لكل جوانب الشك والشبهة ، بينما كنت فى الأصل الثالث « **الإسلام** » عارضاً أكثر منى مناقشاً ، والسبب فى ذلك يعود إلى أن الإنسان بعد أن يقتنع بوجود الله وأن محمداً رسوله ، لم يبق أمامه إلا التسليم لدينه وشريعته . فالمسألة هنا ليست أن تقيم الحُجَّة على كل جزء من الإسلام - والحُجَّة لا شك قائمة - وإنما المسألة هنا مسألة تعريف ، ومنطق العقل يقول : إن الإنسان ليس أمامه إلا التسليم لله فى شريعته ، فإنه الرب وخلقه عبيد ، والأعلم الذى علَّم الإنسان ما لم يعلم .

* *

---

(١) آل عمران : ٨٥

وسبب آخر جعلنا نقف هذه المواقف الطويلة أثناء الكلام عن الله والرسول ، هو أن المادية الملحدة تحاول بكل إمكانياتها أن تُنسى الإنسان الله ، وأن تُصغِّر فى قلبه وذاته رُسُل الله ، يساعدها على ذلك خطط أهل الأديان الباطلة فى تشويه الصورة الصحيحة لرسول الله محمد ﷺ ، فكان لا بد من إعطاء هذه الدراسة حقها ، إذ أن هذه الحملات تزداد يوماً بعد يوم ، وتزداد انعكاساتها على النفس البَشرية لحظة بعد لحظة ، حتى إن المسلمين - وهم وحدهم أهل الحق فى هذا العالَم - أصابهم من هذا وهذا الكثير الفظيع ، حتى أصبحوا الآن فى أتون رِدَّة خطيرة هائلة ، وأصبحوا بحاجة إلى جلاء هذين الأصلين مع الأصل الثالث كغيرهم تقريباً ، إلا مَن عصم الله ورحمه .

* *

وقد أردت بهذا الكتاب شيئاً آخر سوى ما مر :

إن الذين يقومون بشأن التربية الإسلامية أغفلوا أهم جانب فيها على الإطلاق ، هذا الجانب هو الذى أشار إليه ابن عمر فى هذا النص . يقول ابن عمر : « لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يُؤتَى الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها ، وأوامرها وزواجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها . ولقد رأيت رجالاً يُؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ، لا يدرى ما آمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف عنده . . . ينثره نثر الدُقَل » (١) .

إن مأساة المسلمين تكمن فى أنهم أهملوا علم الإيمان وطريقه ، وهو المقدمة الفطرية لكتاب الله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ﴾ (٢) .

---

(١) الدقل : ردىء التمر .　　(٢) فصلت : ٤٤

فكان هذا الكتاب مع كتاب آخر هو « **جند الله .. ثقافة وأخلاقاً** » محاولة لإرجاع الأمر إلى نصابه فى هذا الموضوع .

ولعل هذا الكتاب بعد ذلك يعطى المسلم من قوة الحُجَّة ما يستطيع به أن يدعو كل شارد عن باب الله ، وأن يقيم الحُجَّة على كل عدو لله ممن يجحدون بآيات الله وإن استيقنتها أنفسهم ظلماً وعُتُوّاً .

ولا يفوتنى أخيراً أن أنبه إلى قضية هى :

أننى نقلت من كتب كافرين ، ونقلت من كتب منحرفين ، لأن الحكمة ضالة المؤمن ، فليس كل كتاب نقلت عنه أشير به ، وليس كل كاتب نقلت عنه يستحق أن يُقرأ ، ولكننى لم أنقل شيئاً لا أوافق عليه إلا بيَّنته ، والله من وراء القصد ، وهو حسبى ووليى فى الدنيا والآخرة ونِعْمَ الوكيل .

* *

ملاحظة : كنت ألقيت الأبحاث الأولى عن الذات الإلهية على بعض الطلبة الجامعيين ، وما كان يخطر ببالى وقتذاك أن هذا سيكون جزءاً من كتاب يخرج باسمى ، لذلك لم أحاول أن أعزو كل كلمة قلتها أو نقلتها إلى مراجعها ، ثم كان أن حدث أمر النشر وأنا بعيد عن بلدى ومكتبتى ، فأرسلت البحث على ما هو عليه دون أن أقوم بعملية تمييز لما نقلته ، ولعل أبرز الكتب التى أخذت عنها ، ودمجت كلام أصحابها ضمن الكتاب كتاب « **قصة الإيمان** » للشيخ نديم الجسر حفظه الله ، وكتاب « **الله** » للعقاد ، فمعذرة .

« **المؤلف** »

* * *

الله .. جَلّ جَلاله

معرفة الله هى المرتكز الذى يرتكز عليه السلام كله ، وبدون هذه المعرفة يكون كل عمل فى الإسلام أو للإسلام غير ذى قيمة حقيقية ، إذ أنه فى هذه الحالة يكون فاقداً روحه ، وما قيمة عمل لا روح فيه ؟

ولكن كيف نعرف الله ؟ وما هو الطريق إلى هذه المعرفة ؟ إن الجواب على هذا شىء لا بد منه ، حيث إننا إذا لم نعرف الطريق لن نصل إلى الغاية التى نطلبها .

١ - تصور الكافرين للطريق :

إن ناساً فى القديم وفى الحديث أنكروا وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم ، متصوِّرين أن هذا هو الطريق إليه ، ورموا المؤمنين به بأنهم : واهمون ، وضالون ، وخرافيون ، ومشوشون ، وغير علميين ، إلى آخر السلسلة الطويلة من السب والهزء والسخرية والازدراء التى يوجهها الكافرون بالله إلى المؤمنين لأنهم آمنوا بالله عن غير طريق الحواس .

إن أمثال هؤلاء الذين يقولون : إنهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم يكذبهم واقعهم المادى الذى يعيشونه ، فهم مثلاً يؤمنون بالجاذبية وقوانينها ولم يشاهدوها ، بل رأوا آثارها ، ويؤمنون بالعقل ولم يروه بل رأوا آثاره . ويؤمنون بالمغناطيسية ، وقد شاهدوا فقط انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب ، ويؤمنون بوجود الألكترون والنيترون ولم يشاهدوا ألكتروناً أو نيتروناً ، فواقع أمرهم يدل على أنهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ، ولكن آثارها هى التى دلّتهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه شك ، هذا يعنى بوضوح

أن كثيراً من حقائق الوجود يؤمن بها هؤلاء لإحساسهم بآثارها دون إحساسهم بها ذاتها .

والعقل - ليس الحواس - هو الذى عرَّفهم عليها ، وإن كانت الحواس هى الآلة التى أعطت العقل أدوات الحكم حتى أصدر حكمه ، لكنه لولا العقل ما صدر حكم ولما كانت معرفة . بل الحقيقة أن الحواس تعطينا أحياناً صوراً كثيرة وهمية ولكننا نعرف الحقيقة بواسطة العقل وحده : فالعصا المغمورة بالماء تبدو مكسورة ، والخطوط المتوازية التى تفصل بينها خطوط تبدو غير متوازية ، والأرقام البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء ، وشعورنا دائماً أننا نسير ورؤوسنا إلى أعلا سواء كنا فى القطب الشمالى أو الجنوبى أو على خط الاستواء ، فمثل هذه الصور تبين لنا بوضوح أن الحواس لولا العقل لأعطتنا أخطاء بدلاً من حقائق ، ولولا العقل لم تكن لنا أى معرفة .

فهل كان هؤلاء على صواب عندما حصروا المعرفة كلها فى الحواس ؟ وهل كانوا منطقيين مع أنفسهم عندما رفضوا الإيمان بالله لأنه لم تدركه حواسهم ، مع أنهم بالآثار وحدها آمنوا بكل الحقائق التى لم يشاهدوها والتى تُشكِّل أكبر الحقائق التى عرفها الإنسان .

إن هذا التصور الخاطىء لطريق معرفة الله قديماً وحديثاً من أكبر العوامل التى أبعدت كثيراً من الناس عن طريق الإيمان الصحيح بالله ، مع أن مثل هذا التصور خاطىء بالبداهة ، لأن العقل ببداهته يحكم أن الله خالق المادة ليس بمادة ، لأن المادة لا تخلق مادة ، وإذا كان منتهى إدراك الحواس المادة المحسوسة فقط ، فلن يكون الله محل إدراكها ، والذى يبدو أنه ما من أُمَّة من الأُمم أو كافر من الكافرين إلا وعندهم هذه الشُبهة حول التصور الحسِّى للطريق إلى معرفة الذات الإلٰهية ، فلقد سمعنا فى عصرنا هذا أفراداً يجعلون عدم الرؤية سبباً للإلحاد ، وسمعنا كذلك دولاً تُصرِّح بهذا ، كما صرَّحت بذلك إذاعة الاتحاد السوفييتى عقب إطلاق قمرها الصناعى الأول إلى الفضاء .

ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه نكتة يقال إنها وقعت فى مدرسة ابتدائية ، حيث وقف معلم ابتدائى يقول لطُلَّاب السنة الابتدائية السادسة : أترونني ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذن أنا موجود ، أترون اللوح ؟ قالوا : نعم ، قال : فاللوح إذن موجود ، أتوون الطاولة ؟ قالوا : نعم ، قال : فالطاولة إذن موجودة ، قال : أترون الله ؟ قالوا : لا ، قال : فالله إذن غير موجود . فوقف أحد الطُلَّاب الأذكياء وقال : أترون عقل الأستاذ ؟ قالوا : لا ، قال : فعقل الأستاذ إذن غير موجود .

ويبدو أن هذا الوهم الذى يتمسك به كثير من الكافرين قديم قِدَم الكفر ، كما أنه أثر عن أمراض فى النفس والقلب ، وليس أثراً عن فكر سَوِىّ أو عقل مستقيم أو إنصاف فى تحقيق .

فقد حدَّثنا القرآن الكريم أن الكافرين فى كل عصر ، كانوا يشترطون للإيمان أن يحسوا بالله عن طريق السمع أو الرؤية ، وهذا بعض ما حدَّثنا به القرآن ذاكراً علل هذا الاشتراط ، وهى ذاتها الأمراض التى ينتج عنها هذا التصور الفاسد والكلام الخاطىء . ويحدد القرآن أسباب هذا الطلب بأنها : الجهل ، والكبر ، والانحراف ، والظلم .

١ - **الجهل** : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

ويُلاحَظ فى الآية أنها أشارت إلى أن هذا القول ليس كلام عالمين بل كلام جُهَّال ، وأن هذا الكلام ليس جديداً بل هو منطق الكافرين دائماً قديماً وحديثاً ، وذلك أثر عن تشابه القلوب ، وأخيراً فإنها تقرر أن الطريق إلى الله هى آياته ، أى آثاره التى تدل عليه .

---

(١) البقرة : ١١٨

٢ – **الكبر** : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيراً * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

وكما رأيناهم فى الآية الأولى يريدون أن يسمعوا ، نراهم هنا يريدون أن يروا ، ولكن مَن هم الذين يريدون أن يروا ؟ إنهم الذين يتصوَّرون أن الحياة الدنيا هى كل شىء وليس وراءها إلا العدم . وكما ردَّت الآية الأولى عليهم بطريق غير مباشر ، كذلك بيَّنت هذه الآية أن عالَماً غير هذا العالَم وفى قوانين غير هذه القوانين يرى الكافرون الملائكة ، أما قوانين هذا العالَم العادية فليس فيها للحواس من عالَم الغيب نصيب ، وإذا كانت الملائكة فى قوانين هذا العالَم العادية لا تُرَى ، فأولى إذن تكون الذات الإلهية كذلك . كما بيَّنت الآية أيضاً أن الكبر وحده هو الذى دفعهم إلى مثل هذا المنطق وليس الوضع السَوِىّ للإنسان الذى يرغب بالحق ويسلك إليه طريقه الصحيح .

٣ – **الانحراف** : وآية أُخرى تحدِّثنا عن أحد فراعنة مصر إذ يقول : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ (٢) .

والآية كما ترى تضمنت الرد فى قولها : ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ، فليس ما تصوَّره فرعون طريقاً يعرف به الله هو الطريق الصحيح ، بل هو طريق خاطىء .

٤ – **الظلم** : وآية أُخرى تحدِّثنا أن اليهود طلبوا هذا الطلب ظلماً :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الفرقان : ٢١ – ٢٢ (٢) غافر : ٣٦ – ٣٧ (٣) البقرة : ٥٥

وفى موضع آخر : ﴿ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ (١) .

وكما ردَّت الآية الأولى على أمثال هؤلاء بشكل ضمنى ، فكذلك هنا أشعرتنا بالرد بكلمة : « بظلمهم » ، فليس العدل هو الذى دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب بل الظلم ، ظلم النفوس للحق ، إذ تعرفه وتتنكر له .
وكما طابق قول الكافرين اليوم قولهم قديماً فى هذا الموضوع ، كذلك يطابق تهجمهم اليوم تهجمهم فى الماضى ، ففى الماضى يقص علينا القرآن قصة تهجمهم فيقول : ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (٢) .

فقد اتهموا المؤمنين بالله بأنهم : متوهمون ، وكاذبون ، وعاطفيون . . وأصحابهم اليوم يتهمون المؤمنين بأنهم : غير علميين ، وغير صادقين ، ومشوشون مخدوعون .

ولئن سار على هذه الدروب كثير من الناس ، فليس للمسلم صاحب القلب الكبير أن يقتفى أثر الضالين ، فيقع فيما حذَّره الله منه : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ، وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٣) .

* *

٢ – الطريق إلى الله .. آياته :

وإذن . . فمثل ذاك الطريق لن يصل بنا إلى غاية فى موضوع الذات الإلهية ، فتحديد الطريق ومعرفته أساس لكى نصل إلى الهدف . إن الطريق

(١) النساء : ١٥٣ (٢) الأنبياء : ٤ – ٥ (٣) البقرة : ١٠٨

إلى الله هى آثاره التى تدل عليه وهى طريق وحيدة ، والعقل إذ والفكر والعلم شروط أساسية لسالك هذه الطريق .

إذ بدون عقل لن نعرف الآية ، وبدون فكر لن يعرف صاحبها ، وبدون علم لن تكون معرفة للآية أو لصاحبها . ولعل هذا الكلام مستغرَب عند الملحدين ، إذ أنهم يعطون لأنفسهم دائماً لقب : العَلمانيين والعقلانيين والأحرار والمفكرين ، ولكن الدعوى بدون دليل ليس لها أى قيمة علمية .

وسيكون فى كل ما نكتبه فى هذا البحث الدليل - إن شاء الله تعالى - على صحة ما قلناه ، وهدم ما ادَّعوه : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ (١) ، وسيأتيك بيان هذا .

أما الآن فنقول : المتأمل أدنى تأمل للقرآن ، يرى أن القرآن يلفت النظر بشكل واضح وواسع للعقل والفكر والعلم والآثار ، وهى الشروط الأساسية لمعرفة الله بشكل واسع وواضح : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ، ائتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

أى هل هناك ذَرَّة من علم تشهد أن غير الله هو الخالق ، فإذا ما أنكر الناس ربهم ، فليس ذلك دليلاً على العلم ، بل هو دليل على الجهل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٣) .

ولكنه ليس الجهل المطلق المجرَّد عن أية معرفة ، بل هو جهل خاص ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٤)

---

(١) الشورى : ١٦ — (٢) الأحقاف : ٤

(٣) الحج : ٨ — (٤) الروم : ٧

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (١) .

إن الإكثار من ذكر العلم والفكر والعقل فى القرآن ظاهرة تستلفت النظر بشكل بارز : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٦) .

ومن ثَمَّ فإن المتأمل للقرآن يدرك أن الإسلام يفرض على المسلم أن يفكر ، ويفرض عليه أن يتعلم ، وأن العلم والفكر جزءان من شخصية المسلم ، فى الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلَّى بها ، أو باب معاش يرتزق منه ، أو هواية عند بعض الأفراد ، وإذ يفرض الإسلام العلم ، فلأن بالعلم يعرف أن الإسلام حق : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ (٧) .

وسندرس فى صفحاتنا القادمة - إن شاء الله - آيات الله لنتبين الحقيقة السافرة ، تلك التى تقول إن الكافرين بالله أضلُّوا قلوبهم إذ لم يهتدوا إليه ، وأن المؤمنين هدوا قلوبهم إذ اهتدوا إليه : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٨) ، وأن مثل الكافر الذى لم يشاهد الله بعقله بعد رؤيته آياته ، كمثل حامل أسفار لا يعرف قيمتها ولا مؤلفها فينسبها إلى المجهول المعدوم ، وسنرى كذلك - إن شاء الله - أنه ليست قِلَّة الآيات ، ولا غموضها ، هى التى أدَّت بالكثير إلى الكفر ، بل الآيات من الكثرة بحيث لا تُعَد ، ومن الوضوح

(١) النجم : ٢٩ - ٣٠ (٢) الرعد ٤ (٣) النمل : ٥٢
(٤) النحل : ١١ (٥) الروم : ٢٢ (٦) يونس : ١٠١
(٧) سبأ : ٦ (٨) التغابن ١١

بحيث لا تخفى ، ولكن السر فى الإنسان ذاته ، السر فى إعراضه هو عن الآية ، فى كبره عن الاعتراف بالحق ، فى عدم تعرفه على الحقيقة ، فى انحرافه عن فطرة الإنسان وأخلاق الإنسان بحيث يصبح فى حالة انغلاق قلب وعمى ، لدرجة أنه لو حركته يد القُدرة بشكل معجز لبقى مُصِرّاً على الإنكار .

ويحدثنا القرآن عن أمثال هؤلاء فيقول : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (٢) ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٣) .

وقبل أن نبدأ باستعراض الآيات نحب أن نسأل :

تُرَى هل الله هو الذى يحتاج إلينا كى نؤمن به ، أم نحن الذين نحتاج أن نؤمن به من أجل أنفسنا ؟ ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) ، وإذن فلنحرر أنفسنا من أجل أن نكون أهلاً لرؤية آيات الله :

١ – **من الكبْر** : لأن الله لا يُرى قلباً متكبراً آياته : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٥) .

٢ – **ولنحرر أنفسنا من الظلم والكذب** : ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦) ، ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٧) .

---

(١) الحجر : ١٤ – ١٥ (٢) القمر : ٢ (٣) يوسف : ١٠٥
(٤) العنكبوت : ٦ (٥) الأعراف : ١٤٦ (٦) الصف : ٧
(٧) الزمر : ٣

٣ – **ولنحرر أنفسنا من الإفساد فى الأرض ونقض العهد وتقطيع أواصر ما ينبغى أن يوصل** : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) .

٤ – **ولنحرر أنفسنا من الغفلة** إن أردنا أن تنكشف آيات الله كلها لنا ، فإن بعضاً من آيات الله يتكشف للإنسان بمجرد الفكر إن لم تكن هناك موانع ، وأخرى بمجرد العقل ، ومثال تلك وهذه كل آية فى القرآن قد قال تعالى عنها : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

ولكن آيات الله كلها لا تتكشف لقلب إلا إذا اجتمع لصاحبه فكر مع ذكر : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٤) .

وما أعرض مُعْرِض عن الله إلا لغفلة ، ولا غفلة إلا وراءها لعب ولهو ، والحياة الدنيا كلها لعب ولهو : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (٥)

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ (٦)

---

(١) البقرة : ٢٦ – ٢٧ (٢) الرعد : ٣ (٣) الرعد : ٤
(٤) آل عمران : ١٩٠ – ١٩١ (٥) محمد : ٣٦ (٦) الأنبياء : ١ – ٣

٥ – **ولنحرر أنفسنا من الإجرام** : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) ، ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ (٢) .

٦ – **ولنحرر أنفسنا من التردد فى قبول الحق إذا رأيناه صريحاً** : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٣) .. وساعتئذ فإن آيات الله من الإشراق بحيث تغمر كل جوانب قلبك ، بعد إذ أعددته لتلقى النور ، ولكن هيهات والقلب قلب شيطان أن يكون أهلاً لهداية الرحمن ، ذلك أن الضباب الكثيف يمنع أشعة الشمس ، والعطب فى العين يمنع الرؤية ، والمرض فى الأذن يمنع السمع ، وليس الذنب ذنب الماء الفرات إذا وجده المريض مُرّاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِه ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ ، وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤)

فالسر دائماً فى الإنسان نفسه : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٥) ، وأما آيات الله فواضحة بيِّنة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٦) ، وآيات الله نراها فى ثلاثة :

١ – الكون   ٢ – القرآن   ٣ – المعجزات والكرامات .

---

(١) المطففين : ١٤   (٢) الحجر : ١٢ – ١٣   (٣) الأنعام : ١١٠
(٤) المائدة : ٤١   (٥) الصف : ٥   (٦) الأنعام : ٥٥

وقد عبَّر القرآن عن كل من هذه الثلاثة بأنه آية تدل عليه :

الكون : ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ (٤) .

القرآن : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (٥) . ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ ﴾ (٧) .

المعجزات : ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ (٨) ، ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (٩) ، ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ (١٠) ، ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١١) .

---

(١) الذاريات : ٢٠ - ٢١ — (٢) يوسف : ١٠٥ — (٣) يس : ٣٧ - ٣٩
(٤) الروم : ٢٢ - ٢٣ — (٥) العنكبوت : ٥٠ - ٥١ — (٦) العنكبوت : ٤٩
(٧) آل عمران : ١٠١ — (٨) آل عمران : ١٠١ — (٩) القمر : ١ - ٢
(١٠) هود : ٦٤ — (١١) آل عمران : ٤٩

ونصوص القرآن تشير إلى أن فى الكون آيات وليس آية ، وفى القرآن آيات وليس آية ، والمعجزات آيات وليست آية .

إن عشرات الظواهر فى الكون كل واحدة منها تدل على الله ، وعشرات الظواهر فى القرآن كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله ، والمعجزات ظواهر تاريخية كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله . وفى كل ظاهرة آلاف الإشارات كل واحدة منها تدل على الله ، فالله أقام الحُجَّة على الناس قياماً كاملاً : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) ، ﴿ قَالُواْ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُواْ بَلَىٰ ، قَالُواْ فَادْعُواْ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ ﴾ (٢) .

وفى هذه الرسالة سنعرض لآيات الله فى الكون ، مقيمين الحُجَّة على كل كافر ومعاند : أن الله موجود وأن له صفات الكمال والجلال والجمال كلها .

وفى الرسالة الثانية التى موضوعها « الرسول » سنرى بشكل ضمنى آيات الله فى القرآن وآياته فى معجزات الرسل ، إذ كما أن القرآن آية تدل على الله ، وكما أن فى المعجزة بشكل مطلق آية تدل على الله ، فإن فى القرآن - بنفس الوقت - شهادة على أن محمداً رسول الله وكذلك فى معجزاته ، ولذلك فقد أخَّرنا هذين إلى الرسالة الثانية حيث إقامة الدليل على صحة نبوة الرسول ﷺ إن شاء الله تعالى .

ونبدأ الآن باستعراض **ظواهر الكون** التى تدلنا على الخالق العظيم :

---

(١) النساء : ١٦٥ (٢) غافر : ٥٠

الظاهرة الأولى ...
ظاهرة حدوث الكون

● ظاهرة حدوث الكون .. أى وجوده بعد إذ لم يكن :

أول ظاهرة تدلنا على الله هى حدوث هذا الكون الذى يدلنا على أن له مُحْدِثاً ، وكلما تقدَّم العلم أكثر أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر إقناعاً علىَ هذه الظاهرة ، بل ما قدَّمه العلم من أدلة عليها جعلها فى حكم البديهية ، إذ وضوح الأدلة وتعاضدها لم يُبق مجالاً للشك فيها . فقوانين الحرارة ، وقوانين الألكترون ، والطاقة الشمسية ، قد قدَّم كل منها دليلاً واضحاً عليها ، وبتضافر هذه الأدلة يظهر الأمر ظهوراً لا يبقى معه مجال للشك ، هذا عدا عن الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التى ذكرها الربَّانيون فى كل عصر . وسنحاول أن نستعرض هذه الجوانب واحداً بعد الآخر ، لنرى كيف يُقدِّم كل منها الدليل على كون هذا الكون مخلوقاً لخالق .

١ - قوانين الحرارة :

يقول « ليكونت دى نوى » رئيس قسم الفيزياء فى معهد باستور ، ورئيس قسم الفلسفة فى جامعة السوربون ، فى كتابه « مصير البَشرية » :

« إن أحد وجوه النجاح العظيمة التى حققها العلم الحديث ، ربط قانون « كارنوت كلوزيوس » (يدعى أيضاً بالقانون الثانى فى الترموديناميك) الذى يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية - بحساب الاحتمالات ، وقد أثبت الفيزيائى الكبير « بولتزمان » أن التطور غير الحى وغير القابل للانعكاس الذى يفرضه هذا القانون ، يوافق تطوراً نحو حالات أكثر وأكثر احتمالاً تتصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة ، وهكذا فإن الكون يميل نحو التوازن حيث

تزول جميع عدم التناظرات الموجودة فى الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام » .

وقد عبَّر « إدوار لوزكيل » عن هذا القانون وكيف أنه يثبت به أن لهذا الكون بداية بما يلى :

« وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه ، وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إلٰه أزلى ، ولكن القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأى ، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية . ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب منها معين الطاقة ، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون . لذلك فإننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود ، وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية ، وهى بذلك تثبت وجود الله ، وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ، ولا بد له من مبدىء أو محرِّك أول أو من خالق هو الإلٰه » .

واستدل « فرانك آلان » عالِم الطبيعة البيولوجية على عدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون ، يقول : « كثيراً ما يقال : إن هذا الكون المادى لا يحتاج إلى خالق ، ولكننا إذا سلَّمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجوده ونشأته ؟ هناك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال : فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال وهو ما يتعارض مع القضية التى سلَّمنا بها بها حول وجوده ، وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، وإما أن يكون أبدياً ليس لنشأته بداية ، وإما أن يكون له خالق .

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الإحساس والشعور . فهو يعنى أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة ، فالرأى الذى يدَّعى أن هذا الكون ليس له وجود فعلى ، وأنه مجرد صورة فى أذهاننا ، وأننا نعيش فى عالَم من الأوهام لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال .

أما الرأى الثانى القائل بأن هذا العالَم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحماقة . ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة .

والرأى الثالث الذى يذهب إلى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية ، إنما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية . وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حى يخلق ، وليس هناك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما فى الآخر ، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكوِّنات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضى الوقت . أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معيَّنة ، فهو إذن حَدَث من الأحداث ، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ، ليس له بداية ، عليم محيط بكل شىء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون من صنع يديه » .

فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزلياً ، لأن الحرارة لا يمكن أن توجَد لنفسها بعد برودته ، ولو كان أزلياً لكان بارداً .

*   *

٢ – قوانين الحركة الألكترونية :

والشهادة الأخرى التى تدل على حدوث الكون نجدها فى كل ذَرَّة من ذَرَّات الوجود على الإطلاق ، وذلك أن ذَرَّات الكون كلها مؤلَّفة من جزيئات كهربائية سالبة وموجبة ، الموجبة يُطلق عليها اسم البروتون ، والسالبة يُطلق عليها اسم الألكترون ، وبعض الذَرَّات فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى نيترون ، والبروتون والنيترون يشكِّلان نواة الذَرَّة ، بينما الألكترون تشكل كواكبها السيارة التى تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائرية أهليليجية ، وبسبب هذه السرعة الهائلة فى حركة الألكترون يبقى الألكترون متحركاً هذه الحركة ، إذ لولا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الألكترون ، وعندئذ يكون العجب ، إذ فى هذه الحالة يصبح جُرْم كالكرة الأرضية فى حجم بيضة الدجاجة ، إذ الفراغ كبير جداً فى عالَم الذَرَّة ، فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيِّزاً صغيراً جداً من فراغ الذَرَّة الواسع ، وذلك أن البُعْد بين النواة والألكترونات الدائرة حولها كالبُعْد بين الشمس وكواكبها السيَّارة نسبياً .

من هذه الدراسة الموجزة للذَرَّة نصل إلى الحقائق التالية :

١ – أن الألكترون فى أكثر ذَرَّات الوجود – إن لم يكن فى كلها – فى حركة دائمة دائرية .

٢ – وأنه ليس هناك أى دليل فى الوجود يدل على أنه يمكن أن يكون هناك وضع آخر للألكترون كان عليه أولاً ثم انتقل إلى هذه الحالة ، إن لم نحكم باستحالة تصور آخر أقدم من هذا الوضع ، إذ لو كان لاحتجنا إلى مؤثر جعل ألكترونات الوجود تتحرك بعد خمود فيتوسع الكون بعد ضيق .

٣ – أن هذا الكون كله مؤلَّف من نفس الذَرَّات التى عرفنا خصائصها هنا ، بل من نفس العناصر ، وهذه الحركة التى نجدها فى الألكترون نجدها فى كل جُرْم فى الفضاء .

وبعد هذه الحقائق نقول : إن الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته ، ولما كانت الألكترونات والأجرام كلها فى حركة دائرية ، ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة كما يبدو ، فإذن لا بد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الألكترون ، وهذه البداية فى الحقيقة هى بداية وجود الذَرَّات نفسها ، وبهذا نكون قد وصلنا إلى أن لهذا الكون بداية ونشأة وخالقاً خلق من العدم ، إذ العدم لا ينتج عنه وجود .

* *

٣ – الطاقة الشمسية :

نحب أولاً أن نذكر كلمة توضح معنى الأزلية . إنه لو وضعنا الرقم (١) وأمامه أصفار ممتدة منه إليه على محيط الكرة الأرضية ، فإن هذا الرقم الكبير من السنين إنما يمثل جزءاً كالصفر تقريباً بالنسبة إلى اللانهاية أو اللابداية ، ونفس الشيء لو كان الرقم (١) أمامه أصفار من أول الكون إلى نهايته ، فإن هذا الرقم لا يمثل إلا جزءاً من اللانهاية يشبه الصفر ، وكذلك هو بالنسبة للأزل .

فالذين يقولون بقِدَم المادة إنما يعطونها هذا المعنى ، وهذا الذى تثبت الظواهر كلها استحالته وخلافه . والظاهرة هذه التى سنتكلم عنها تمثل إحدى هذه الظواهر .

من أين تأتى الشمس بطاقتها ؟ وكيف تحافظ على حرارتها ؟

وعندما نقول الشمس فإنما نعنى كل نجوم هذا الكون ، فنجوم هذا الكون كلها شموس تُرَى صغيرة لبُعدها عنا وشمسنا هذه نموذج عنها .

والسؤالان اللذان ذكرناهما مهمان جداً ، لأن الشمس وكل الشموس فى حالة إعطاء دائم ، فهى تعطى دائماً إشعاعاً حرارياً يشكل طاقة . لقد أضىء معرض شيكاغو الذى أقيم عام ١٩٣٣ بكامله بواسطة مفتاح ضخم يدار

بواسطة شعاع ضئيل كان قد انبعث من نجم (السماك الرامح) منذ أربعين عاماً .

فما سبب هذه الطاقة فى الشموس ؟ أجيب على هذا السؤال أكثر من جواب ، ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الأخير وهو : أن ذَرَّات هذه الشموس تتحطم فى قلبها المرتفع الحرارة جداً ، وبواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التى لا مثيل لها ، وكما هو معلوم فإن الذَرَّة عندما تتحطم تفقد جزءاً من كتلتها حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة ، وإذن فإن كل يوم يمر على أى شمس معناه فقدان جزء ولو يسيراً من كتلتها ، إن الشمس مثلاً تفقد كل يوم كذا كيلو جرام ومثلها بقية النجوم .

فلو كانت هذه الشموس قديمة أزلية فهل يمكن أن تكون فى وضعها الحالى ؟ أو أنها تكون قد استُنفدَت وانتهى أمرها ؟ والأزل كما رأينا هو الأزل ، ونحن لم ننس أن قسماً من هذه الطاقة التى تصرفها الشموس يتحول إلى مادة ، ولكن نسبة التحول إلى غير التحول تبقى ضئيلة كنسبة النجوم إلى الفضاء ، وكلامنا ليس فى جزء من الكون يُفقَد ويُعوَّض ، فقد يوجد مثل هذا التوازن أحياناً ، ولكن كلامنا فى الكون كله ، إذ ما دام الفضاء عظيماً فحتماً سيضيع قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحوَّل إلى مادة ، وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادى بشكل ما من جديد ، فإن تصور أزلية الكون الحالى مستحيلة ، إذ شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستنفاد طاقة الوجود كله .

أما الكلام بأن الكون كله كان فى الأصل طاقة ، فتحوَّلت إلى مادة ، وهو الآن مادة يتحول إلى طاقة ، ومن ثَمَّ سيكون مادة وهكذا ، فالذى يبدو أن المغالطات فيه واضحة ، ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجدت مادة ما تقوم بها ، فالطاقة تحتاج إلى ذات وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم ، أو بتعبير العلماء القدامى : الطاقة عَرَض تحتاج إلى جوهر لتظهر فيه ، فإشعاع

الشمس عندما يصادف الأرض مثلاً ، تأخذ ذَرَّات الأرض حرارته وبهذا تصبح ذَرَّات الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية ، ولكن إذا لم يصادف هذا الشعاع مادة فهل سيتحول نفسه إلى ذَرَّة مادية ؟ على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن ، وبهذا يتضح بما لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديماً وأن له بداية ، وأنه لا يُتصور وجوده لولا أن له خالقاً ، هذا الخالق هو ابتدأ خلقه ووجوده بعد إذ لم يكن .

* *

٤ – وقد عبَّر علماء التوحيد القدامى عن قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم بقدرة الله على الشكل التالى :

نظروا إلى الكون فوجدوا ما فيه على نوعين : نوع يقوم بذاته ، ونوع لا يقوم بلا ذات . فمثلاً الجسم يقوم بذاته ، ولكن المرض لا يكون بلا جسم ، والذَرَّة تقوم بذاتها ، ولكن الحرارة لا تكون بلا ذات ، وسموا ما يقوم بذاته : الجوهر ، وما لا يقوم إلا بالجوهر : عَرَض ، فالذَرَّة جوهر وحرارتها عَرَض ، والجسم جوهر والصحة عَرَض .

وقالوا : إن الجواهر لا تنفك عن الأعراض فما رأينا جوهراً إلا ويلازمه عَرَض ما ، وكل عَرَض حادث ، فالظلام حادث ، فمنذ فترة كان قبله نهار ، والنهار حادث ، فمنذ فترة كان قبله ليل ، وحرارة الذَرَّات مهما كانت فإن لها بداية ، وكذلك برودتها لها بداية . . . وهكذا ، وإذن فما من عَرَض إلا وله بداية ، وإذا كان لا جوهر إلا بعَرَض فلا جوهر إلا وله بداية ، فالكون جواهره وأعراضه كله حادث وليس أزلياً .

* *

● **مناقشة سؤال :**

ويثير الناس عند الوصول إلى هذه الحقيقة السؤال التقليدى : مَن خلق الله الذى خلق الخلق ؟ وفى مضمون السؤال الجواب عليه . فالله خالق ، وكونه خالقاً يجعلنا لا نتصور أنه مخلوق ، إذ لو كان مخلوقاً لما استطاع أن يخلق ، ألا ترى أن الإنسان مثلاً مع كل ما أوتى من إمكانيات لم يستطع أن يخلق شيئاً من عدم ، فكيف نتصور خالق هذا الكون مخلوقاً ؟!

يقول الأستاذ البنا - رحمه الله - مجيباً هؤلاء الذين يسألون هذا السؤال :

« إذا وضعت كتاباً على مكتبك ، ثم خرجت من الحجرة وعدت إليها بعد قليل ، فرأيت الكتاب الذى تركته على المكتب موضوعاً فى الدرج ، فإنك تعتقد تماماً أن أحداً لا بد أن يكون قد وضعه فى الدرج ، لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه . احفظ هذه النقطة وانتقل معى إلى نقطة أخرى . لو كان معك، فى حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسى ، ثم خرجت وعدت إلى الحجرة ، فرأيته جالساً على البساط مثلاً ، فإنك لا تسأل عن سبب انتقاله ولا تعتقد أن أحداً نقله من موضعه ، لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى مَن ينقله . احفظ هذه النقطة الثانية ثم اسمع ما أقول لك : لما كانت هذه المخلوقات محدَثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها ، بل لا بد لها من مُوجِد ، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى ، ولما كان كمال الألوهية يقتضى عدم احتياج الإله إلى غيره ، بل إن من صفاته قيامه بنفسه ، عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج إلى مَن يوجده ، وإذا وضعت النقطتين السابقين إلى جانب هذا الكلام ، اتضح لك هذا المقام ، والعقل البَشرى أقصر من أن يتورط فى أكثر من ذلك .

وقد كان علماء التوحيد يرون أن مثل هذا السؤال لا معنى له فيقولون :

إذا سرنا مع السائلين شوطاً عندما سألوا : مَن خلق الله ؟ فقلنا لهم :

غيره ، ومَن خلق غيره ؟ غيره ، ومَن خلق الثالث ؟ آخر . وماذا بعد ذلك ؟ فإنه بالتالى لا بد أن نصل فى النهاية إلى ذات لا بداية لها ولا خالق ، هذه الذات التى لا بداية لها ولا خالق هى الذات الإلٰهية ، وكل جواب فى الوسط لا معنى له فى النهاية ، فهناك خالق ومخلوق ولا يمكن أن يكون للخالق خالق .

والحقيقة أن الذى يسأل مثل هذا السؤال إما هازل والجواب عليه الإعراض عنه ، أو متوهم والجواب عليه إزالة سبب التوهم ، وسبب توهمه أنه رأى كل شىء موجود محتاجاً إلى خالق . فتصوَّر أن هذا القانون يسرى على الخالق نفسه ، والجواب على هذا : إنه ليس شرطاً حتمياً أن تنطبق على الصانع نفس القوانين التى يخضع لها المصنوع ، إذ المصنوع والقوانين التى يخضع لها من صنع الصانع ، وفى حدود العالَم نفسه نجد أن ما صنعه الإنسان لا تسرى عليه حالات الإنسان ، فالإنسان يمشى تلقائياً ، ويريد ، ويعلم ، ويدرك ، ويفكر ، ويأكل ، ويشرب ، ويمس ، ويشتهى ، فهو شىء وما يصنعه شىء آخر ، ولكل خصائصه ، وهذا الكون شىء ، وخالقه شىء آخر ، وللكون خصائصه ، وللذات الإلهية صفاتها .

وفى غالب الأحيان يكون صاحب السؤال من الذين لا يؤمنون بالله ، والجواب على مثل هذا أن نقول له : إننا جميعاً متفقون على أن هناك شيئاً قديماً لا بداية له ولا خالق ، أنت تقول : إن هذا الشئ القديم هو المادة ، ونحن نقول : هذا الشىء القديم هو الله ، وقد أثبتت العلوم كلها أن المادة غير قديمة فلم يبق إلّا أن يكون الله هو القديم . وقد ذكرنا فى الصفحات السابقة بعضاً مما قالته العلوم ، وننقل الآن أقوالاً أخرى لبعض علماء الطبيعة فى نفس الموضوع من كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » (ص ٢٧) مختتمين بها الحديث عن هذه الظاهرة . يقول « جون كوشران » :

« وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن

بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية . إذ أن لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد » .

ويقول « إيرفنج وليام » فى نفس المصدر (ص ٥٥) :

« . . . . . فعلم الفلك مثلاً يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة ، وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة ، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلى ليس له بداية ، أو أبدى ليس له نهاية ، فهو قائم على أساس التغير » .

هذا كلام هؤلاء على كفرهم - إذ الإيمان بالله له مستلزمات لم يقم بها هؤلاء - إلا أن علمهم بقوانين الكون أوصلهم إلى هذه الحقيقة الخالدة والقائمة فى كل فطرة ، والبديهية عند كل عقل مستقيم . والله عَزَّ وجَلَّ يقول : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (١) .

* * *

---

(١) الطور : ٣٥ - ٣٦

الظاهرة الثانية ...

ظاهرة الإرادة

(١)

إن هناك فرضيات ثلاث يمكن أن تُذكر أثناء الحديث عن الكون وما فيه . كتعليل لوجوده على ما هو عليه :

الأولى : أن يكون من صنع الله .

الثانية : أن يكون من صنع ذَرَّات المادة وأجزائها وعناصرها عن قصد وإرادة وعناية منها ، أى أن عناصر المادة الأصلية فكَّرت ودبَّرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالَم بهذه الأشكال والصور التى نراها .

الثالثة : أن يكون الكون بما فيه ، قد تكوَّن بطريق المصادفة ، أى أن الجزيئات الكهربية التى منها تتألف ذَرَّات هذا الكون وُجدت مصادفة ، وكان بعضها سالباً والآخر موجباً والأخير معتدلاً مصادفة ، وكل جزئ سالب التقى بجزئ موجب مصادفة ، ومجموعة متدرجة من الواحد إلى ٢٣٨ من الجزيئات الموجبة شكَّلت مع بعضها نوى مصادفة ، والجزيئات السالبة أخذت تدور حول هذه النوى مصادفة ، وكان بين النواة والكهارب فراغات لولاها لكان جُرْم الأرض بحجم البيضة مصادفة ، ووجود المدارات الثابتة لكل ثمانية كهارب كان مصادفة ، ووجود إمكانيات الاتحاد بين العناصر لتشكيل مركَّبات جديدة بسبب نقص الألكترونات عن الثمانية فى غلافات بعض الذَرَّات كان مصادفة ، واتحاد العناصر واجتماعها لتتكون هذه الأجرام الهائلة من الشموس كان مصادفة ، وانتظام الشموس فى مداراتها والكواكب فى مداراتها كما تنتظم الألكترونات مصادفة ، والحرارة الموجودة فى الشمس والإشعاع والتركيب كان مصادفة ، ثم الأرض بوضعها الحالى الصالح للحياة : قشرتها ،

هواؤها ، ماؤها ، جبالها ، حجمها ، وُجدت مصادفة ، ثم الحياة بتنوعاتها وتركيباتها ، وأجهزتها المعقَّدة ، وُجدت مصادفة ، ثم الإنسان : بعقله ، وفكره ، وتركيبه ، وروحه ، وأخلاقه ، واستعداداته الخيالية والتصورية والعلمية ، وإمكاناته للتسخير . . كل هذا وُجِد مصادفة .

هذه افتراضات ثلاث لا يمكن أن يكون غيرها لتعليل وجود هذا الكون على ما هو عليه ، أما الفرض الأول فيقول به المؤمنون ، وأما الفرض الثانى فلا يقول به أحد ، وأما الفرض الثالث فيقول به الماديون .

وإذن فنحن أمام فرضين فقط : إما أن يكون هذا الكون بتنوعاته من صنع صانع له إرادة طبقا لمبدأ السببية . وإما أن يكون نتيجة المصادفة .

* *

(٢)

ومهمتنا أن نرى أيّاً من الفرضين يقوم عليه البرهان ، وأيّاً منهما لا دليل عليه ولا برهان ، إذ أن المصادفة فى حد ذاتها تكون أحياناً ممكنة وتكون أحياناً فى حكم المستحيلة عقلاً ، وسنضرب أمثلة نبين منها حالة الإمكان وحالة الاستحالة :

خذ لوحاً واغرز فيه إبرة ، وضع فى ثقبها إبرة ثانية أخرى وقل لى : إذا رأى إنسان هاتين الإبرتين ، وسأل : كيف أدخلت الثانية فى ثقب الأولى ، فأخبره إنسان معروف بالصدق أن الذى أدخلها رجل وضعها بيده فى شق الإبرة الأولى ، ثم أخبره إنسان آخر معروف بالصدق أيضاً ، أن الذى ألقاها صبى صغير ولد من بطن أمه أعمى ، فوقعت فى الشق بطريق المصادفة فأى الخبرين يُصدِّق ؟

لا ريب أنه يميل إلى تصديق الخبر الأول ، ولكنه أمام صدق المخبرين يرى أن المصادفة ممكنة ، فلا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر ، ولكن إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة فى شق الثانية أيضاً ، فهل يبقى عدم الترجيح على حاله ؟!

الحقيقة أنه يتقوى ترجيح « القصد » على المصادفة ، ولكن لا يزال للمصادفة محل ولو كان ضعيفاً ، فإذا ما رأى الرجل أن هناك عشر إبر ، كل واحدة منها مغروزة فى ثقب الأخرى التى تليها ، فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على وضعه السابق ؟ الحقيقة أن ترجيح فكرة القصد يتقوى لدرجة تكاد تتلاشى فيها فكرة المصادفة .

وكلما ازداد تعقيد المسألة أكثر دنت فكرة المصادفة من الاستحالة ، فمثلاً لو قلنا : إن الإبر العشر مرقمة بخطوط ، لكل واحدة منها رقم ، من الواحد إلى العشرة ، وقيل لنا فى الخبر : إن الصبى الأعمى أُعطَى كيساً فيه هذه الإبر العشر مخلوطة مشوشة ، وأنه كان يضع يده فى الكيس ويستخرج الإبر تباعاً على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ، ويلقيها اعتباطاً ، فتقع الأولى فى شِق المغروزة فى اللوح ، وتقع الثانية فى الأولى ، والثالثة فى الثانية ، والرابعة فى الثالثة ، وهكذا حتى تم إدخال الإبر العشر بعضها فى بعض على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة .

ثم إذا تعقَّدت المسألة أكثر بحيث جعلنا بدل الصبى : الهواء أو الماء أو العدم .

فماذا يكون موقف الإنسان فى هذه الحالة ، هل يصدِّق خبر مَن يقول بالمصادفة ، أو خبر مَن يقول : بأن هناك ذاتاً ذات إرادة وبصر هى التى فعلت هذا ؟

لا شك أن الإنسان العاقل يرجح ترجيحاً مطلقاً بداهة : أن الثانى هو الصادق .

وسبب هذا الترجيح يعود إلى أن للمصادفة قانوناً رياضياً عقلياً لا يمكن الخروج عنه ، وهو :

« إن حظ المصادفة من الاعتبار ، يزداد وينقص ، بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانات المتكافئة المتزاحمة » .

فكلما قَلَّ عدد الأشياء المتزاحمة ، ازداد حظ المصادفة من النجاح ، وكلما كثر عددها قَلَّ حظ المصادفة ، فإذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين ، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين) ، وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد عشرة) ، وذلك لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعاً ، وإلى هنا يكون الحظ فى النجاح قريباً من المتزاحمين حتى لو كانوا مائة أو ألفاً ، ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخماً هائلاً ، يصبح حظ المصادفة فى حكم العدم بل المستحيل . ولإدراك المسألة بشكلها الواضح فلنقرأ هذا المثال :

افرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرَّقة فى صناديقها ، فجاءت هزَّة أرضية قلبت صناديق الحروف وبعثرتها وخلطتها ، ثم جاءك منضد الحروف يخبرك بأنه قد تألَّف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعانى ، فالقضية تكون فى هذه الحالة قابلة للتصديق جداً .

ولو قال لك : إن الكلمات العشر ألَّفت جملة مفيدة كاملة ، تستبعد ذلك ، ولكن لا تراه مستحيلاً .

ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها ، تشكَّلت وكوَّنت عند اختلاطها بالمصادفة كتاباً كاملاً من (٥٠٠ صحيفة) يتضمن قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة منسجمة بألفاظها ، وأوزانها ، لا شك أنك فى هذه الحالة ترى الاستحالة بديهية وواضحة .

والسبب فى رؤية الاستحالة يعود إلى قانون الصدفة نفسه .

فإذا علمنا أن نسبة خروج الأرقام العشرة متسلسلة فى مسألة الإبر هو (١) إلى عشرة مليارات ، ولو كانت الإبر (١٢) لكان احتمال خروجها متتابعة واحد إلى ألف مليار ، ولو كانت (٢١) لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار مليار .

فكيف بالتزاحم الذى يجرى بين (٥٠٠ ألف) حرف لتكوين (١٢٥ ألف)

كلمة تقريباً ، بأشكال وترتيبات لا تُعَد ولا تُحصَى أبداً ؟ إن النتيجة هائلة لدرجة أن نسبة الاحتمالات فى حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة .

ولكى نعرف معنى كلمة (٥٠٠ ألف) حرف و (١٢٥ ألف) كلمة و(٢٨) حرف هجائى ، لندرس هذا النص : « إن البروتينات من المركَّبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية ، وهى تتكوَّن من خمسة عناصر هى : الكربون ، والهيدروچين ، والنتروچين ، والأوكسچين ، والكبريت ، ويبلغ عدد الذَرَّات فى الجزئ البروتينى الواحد (٤٠٫٠٠٠) ذَرَّة ، ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة (٩٢) عنصراً [١] موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكوِّن جزيئاً من جزيئات البروتين ، يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطاً مستمراً لكى تؤلف هذا الجزئ ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذَرَّات الجزئ الواحد .

وقد قام العالم الرياضى السويسرى « تشارلز يوجين جاى » بحساب هذه العوامل جميعاً ، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزئ بروتينى واحد إلا بنسبة (١) إلى (١٠) ١٦٠ أى بنسبة واحد إلى رقم (١٠) مضروباً بنفسه (١٦٠) مرة ، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات ، وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة ، بحيث ينتج جزئ واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .

يقول « ليكونت دى نوى » : « يجب أن تتصور حجماً أكبر من الكون الأينشتايينى بسكستيليون سكستيليون مرة » ، ويتطلب تكوين هذا الجزئ على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات ، قدَّرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها (٢٤٣ مرة) من

---

(١) النص سابق على زمن اكتشاف بعض العناصر التى اكتشفت حديثاً .

السنين (١٠) ٢٤٣ . أن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية ، فكيف تتآلف ذَرَّات هذه الجزيئات ، إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى غير التى تتآلف بها تكون غير صالحة للحياة ، بل تصير فى بعض الأحيان سموماً .

وقد حسب العالِم الإنجليزى « ج . ب . ليتز » الطرق التى يمكن أن تتآلف بها الذَرَّات فى أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات ، فوجد أن عددها يبلغ الملايين (١٠) ٤٨ ، وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتآلف كل هذه المصادفات لكى تبنى جزيئاً بروتينياً واحداً .

ولقد ذكرنا هذا النص لنرد مباشرة على مَن يقول : إن ما لا يحدث فى هزة واحدة ، يمكن أن يحدث فى غيرها إلى ملايين الهزات ، لنبين الزمن الهائل الذى نحتاجه لتكوين جزئ واحد فيه خمسة عناصر ، مع ملاحظة أن أقصى تقدير لعمر الكون خمسة بلايين سنة .

فخمسة عناصر فى جزئ واحد ، يمكن أن تكوِّن تشكيلاتها (١٠) ٤٨ نوع ، فكيف بـ (٢٨) حرف هجائى تريد أن تشكل قصيدة مؤلفة من (١٥ ألف) كلمة ، مجموع حروفها (٥٠٠ ألف) حرف ، بتسلسل معيَّن ، بفكر معيَّن ، بنظم معيَّن !!

* *

(٣)

وعلى ضوء هذا الذى ذكرناه ، نذكر كلمات علماء التوحيد المسلمين فى هذا الموضوع ، فإن لها علاقة وثيقة بنظرية الاحتمالات للوصول فى النهاية إلى المراد :

يتحدث علماء التوحيد عن الكون كحديثهم عن كل الممكنات التى يمكن أن تكون ، ويعددون هذه الممكنات ، فيقولون :

الممكنـــات المتقابــلات	وجودنا والعدم الصفــات
أزمنة ، أمكنة ، جهـات	كذا المقادير روى الثقـات

فإذا كان هذا الكون من الممكنات ، فكل ممكن يمكن أن يكون موجوداً ، ويمكن أن يكون معدوماً ، ويمكن أن يكون على صفة ، ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تُعَد ، ويمكن أن يكون فى زمان ، ويمكن أن يكون فى أزمنة أخرى ، ويمكن أن يكون فى مكان ، ويمكن أن يكون فى أمكنة أخرى ، ويمكن أن يكون بمقدار ، ويمكن أن يكون بمقادير أخرى ، وبالتالى فكل جزء من أجزاء هذا الكون تنطبق عليه هذه المعانى .

فإذا كان من بين هذه الممكنات كلها يختار دائما واحد ، هو الأحكم والأحسن والأكثر نظاماً ، ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى ، فلا بد إذن من وجود إرادة عليا رجحت أحد وجوه الاحتمال والإمكان .

* *

(٤)

وبعد هذا كله وقبل أن نصوغ مسألتنا فى صيغتها الأخيرة نقول :

إن المسألة فى موضوع الكون أعقد بكثير من المثالين اللذين ضربناهما ، ففى مثال الطفل والإبر أو مثال المطبعة والحروف : الإبر موجودة بثقوبها بإمكانية الغرز فيها ، ذَرَّاتها متآلفة مع بعضها على ترتيب معيَّن ، من معدن معيَّن ، والطفل موجود وعنده إمكانية الرمى ، وله إرادة تتوجه حتى يرمى وإن كان أعمى . وحروف المطبعة موجودة ، وهذا حرف كذا ، وذاك حرف معيَّن ، وذَرَّاتها مجتمعة حتى تُكوِّن هذا الحرف ، وموجودة بجانب بعضها ومصفوفة فى صناديقها ، وهناك شىء اسمه هِزَّة أرضية لها قوانين .

أما فى موضوع الكون ، فإن القضية من التعقيد لدرجة لا تستطيع أن تحيط بها عقول البَشر كافة ، مما يجعل الصدفة مستحيلة التصور فى حد ذاتها بله الوقوع .

* *

(٥)

ونبدأ الآن فى صياغة المسألة :

هذا الكون مؤلَّف من عناصر واحدة ، بنجومه ، وشموسه ، ومجرَّاته ، وأرضه ، يبلغ عدد هذه العناصر أكثر من مئة ، وهذه العناصر نفسها عبارة عن شحنات كهربائية بعضها موجب ، والآخر سالب ، وبعضها معتدل ، ويسمى الموجب بروتون ، والسالب ألكترون ، والمعتدل نيوترون .

وعدد الألكترونات فى مدار الذَرَّة الخارجى يكون مطابقاً لعدد البروتونات التى فى نواتها ، فإذا كان فى نواتها بروتون واحد كان فى المدار ألكترون واحد كما فى الهيدروچين ، وإذا كان فى النواة بروتونان كان فى المدار ألكترونان ، وهكذا يتدرج العدد (واحد) من أخف العناصر وزناً ذَرِّياً إلى أثقلها وهو الأورانيوم ، وبهذا التعادل العجيب بين الألكترونات السالبة والبروتونات الموجبة تتعادل كهربائية الذَرَّة ، أما النوترونات المحايدة فإن عددها فى نواة الذرة - قَلَّ أو كثر - لا يتعادل مع عدد الألكترونات .

واختلاف العناصر أثر عن اختلاف عدد البروتونات والألكترونات فى ذَرَّة كل منها ، فالفارق بين الهيدروچين والأورانيوم ، أن الأول فيه بروتون واحد وألكترون واحد ، بينما الأورانيوم فيه (٢٣٨) بروتون و (٢٣٨) ألكترون .

والعناصر هذه هى التى يتشكل منها الكون كله ، وهى نفسها موجودة تقريباً فى كل جُرْم ، فنفس العناصر الموجودة فى الأرض موجودة فى الشمس ، وكذلك فى كل نجم موجود فى هذا الفضاء كله .

وإذن فكل هذه المجموعة من العناصر تجتمع مع بعضها بكتل عظيمة لتشكل جُرْماً ، وكل جرم له نفس القوانين التى للأجرام الأخرى ، وهذه الأجرام كلها لها مداراتها المنتظمة ، لكل مداره الذى لا يصطدم فيه مع أى جُرْم آخر رغم السرعات الهائلة التى يسير فيها ، حتى إن احتمال اصطدام نجم مع آخر

كاحتمال اصطدام سفينتين : إحدهما فى المحيط الهندى ، وأخرى فى المحيط الأطلسى .

وشمسنا نحن واحدة من هذه الأجرام التى لها نفس خصائصها وقوانينها ، ويتبع شمسنا كواكب سيَّارة إحداها الأرض التى نعيش عليها والتى ظهرت فيها الحياة .

* *

(٦)

● ثم :

١ - لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى عليه بمقدار بضع أقدام ، لامتص ثانى أكسيد الكربون الأوكسچين ، ولما أمكن وجود حياة .

٢ - ولو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه ، فإن بعض الشُهُب التى تحترق بالملايين كل يوم فى الهواء الخارجى ، كانت تضرب فى جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وكان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق .

٣ - ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالى ، لكنَّا تجمدنا ، ولو أنها زادت بمقدار النصف ، لكنَّا رماداً منذ زمن بعيد .

٤ - ولو كان قمرنا يبعد عنا (٢٠ر٠٠٠) ميلاً بدلاً من بُعْده الحالى ، - ولِمَ لا وقمر المريخ يبعد عنه (٦٠ر٠٠٠) ميل - لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى تُغمَّر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها .

٥ - ولو كان ليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات ، لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا فى كل نهار ، وفى الليل يتجمد كل نبت فى الأرض .

٦ - ولو كان كان الأوكسچين بنسبة ٥٠ فى المائة أو أكثر من الهواء بدلاً من ٢١ فى المائة ، فإن جميعَ المواد القابلة للاحتراق فى العالَم تصبح عُرضة

للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة فى البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة كلها .

ولو كانت نسبة الأوكسچين ١٠ فى المائة ، لتعذَّر أن يكون التمدن الإنسانى على ما هو عليه اليوم .

٧ - ولولا المطر ، لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها ، فلولا الرياح والبحار والمحيطات ، لما كانت حياة ، ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح ، لما كانت حياة ، ولولا أن البخار أخف من الهواء ، لما كانت الحياة .

٨ - ولو كانت مياه المحيطات ، حلوة لتعفنت وتعذَّرت بعد ذلك الحياة على الأرض ، حيث إن الملح هو الذى يمنع حصول التعفن والفساد ، ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم ، لما كان ملح ، وبالتالى ما كانت حياة .

٩ - ولو كان محور الأرض معتدلاً بدل هذا الميل الحالى الذى مقداره ٢٣ درجة مع سكون الأرض ، لتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت فى مكانين محدودين فى الشمال والجنوب ، وكوَّنت قارات الجمد ، ولظل الصيف دائماً والشتاء إلى الأبد ، ولهلك الناس والحياة والأحياء .

١٠ - ولو كانت الأرض كعطارد لا يدير إلَّا وجهاً واحداً منه نحو الشمس ، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة فى خلال الدورة الكاملة للشمس ، أو بتعبير آخر : لو كان قسم من الأرض ليلاً دائماً والآخر نهاراً دائماً ، لما عاش أحد حيث الليل الدائم أو النهار الدائم ، ولا كانت حياة .

١١ - ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة ، فمن أين تلتقى الذَرَّات وجزيئات الذَرَّات ، ومن أين تكون الشمس شمساً والأرض أرضاً ؟ ولو

كانت فمن أين تبقى فى مكانها الحالى ؟ ولو بقيت فكيف تكون الحياة وكيف يسير الإنسان ؟

١٢ - وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالى ، لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوى والمائى اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت .

١٣ - ولو كانت الألكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذَرَّة ، والذَرَّات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات ، لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره ؟ وعندما تكون المسألة كذلك ، يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جُرْم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذَرَّاته .

١٤ - ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها ، لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات ، إن مواقع الألكترونات فى غلاف الذَرَّة تنتظم فى ترتيب ثمانى ، فإذا بلغ عدد الألكترونات فى مدار الذَرَّة السطحى الثمانية ، تنتهى حمولة هذا السطح بامتلاء الأسرة الثمانية ، فلم يعد يتسع لألكترون آخر ، فإذا كان للعنصر تسعة ألكترونات ، اتخذ التاسع مركزاً له فى مدار ثان فى غلاف الذَرَّة ، وهكذا حتى تمتلىء الأسرة الثمانية فى المدار الثانى ، ثم فى المدار الثالث ، فالرابع إلى النهاية ، ثمانية ثمانية ، واتحاد العناصر ببعضها يتمشى على أساس هذا الترتيب فى السطح ، ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين ألكتروناتها ، فإذا كان عدد ألكترونات العنصر أقل من ثمانية فى سطح الغلاف ، فإنه يستطيع أن يستقبل عنصراً آخر فى ضيافته ، أما الذى فى طبقته الخارجية ثمانية ألكترونات فلا يستطيع أن يستقبل أحداً فى ضيافته ، فالذى فى طبقته الخارجية سبعة كهارب يستطيع

الاتحاد بعنصر آخر فى طبقته ألكترون واحد ، والذى فى طبقته الخارجية ستة ألكترونات يتحد مع الذى فى طبقته الخارجية ألكترونان . . . وهكذا .

١٥ - ولولا قوانين الحرارة ، لما تبرَّدت الأرض ولما كانت صالحة للحياة .

١٦ - ولولا الجبال ، لتناثرت الأرض ، ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

١٧ - ولولا أن فى الأرض أرزاقها ، لما استطاعت الحياة أن تبقى .

* *

(٧)

هذه كلها مقدمات للحياة ، إنها مقدمات أوصلت إلى نتيجة ، وكل مقدمة من هذه المقدمات لا يمكن أن تكون مصادفة فى حساب الاحتمالات إلا بنسبة (١) إلى أرقام خيالية جداً . وإننا نرى أن كل مقدمة من مقدمات الحياة فى هذا الكون ، يمكن أن تكون على ملايين الأشكال الأخرى ، ولكن واحداً فقط من هذه الممكنات هو الذى اختير ، والمقدمة الثانية يمكن أن تكون على ملايين المحتملات ، ولكن واحداً فقط هو الذى اختير ، وبتضافر هذه المختارات من بين هذه الممكنات كلها ، وُجِد الجو المناسب للحياة ، فهل يمكن تعليل هذا كله بغير الإرادة التى ترجح وجود ممكن على ممكن آخر ؟

* *

(٨)

● **إنها الإرادة فقط :**

ولنعد مرة أخرى إلى ما قاله علماؤنا من قديم :

إن كل شيء فى هذا الوجود يمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون على غيرها ، ويمكن أن يكون فى زمان ويمكن أن يكون فى آخر ، ويمكن أن يكون فى جهة وأن يكون فى جهة أخرى ، ويمكن أن يكون فى مقدار ويمكن أن

يكون فى مقدار آخر ، وإرادة الله وحدها هى التى يمكن أن يُعَلَّل بها ترجيح أحد وجوه الاحتمال ، حتى كان هذا الكون على أتم نظام وأكمله ، وكل شىء فيه على أجمل ترتيب وأروعه .

* *

(٩)

● **وأخيراً :**

إن الذين يقولون بأن حوادث هذا الكون كلها وليدة المصادفة ، إنما يعطون لهذه المصادفة علماً محيطاً وإرادة كاملة وقدرة مطلقة - تعلم ، وتريد ، وتقدر - هى فى كل ذلك تعمل بحكمة أكثر مما لو اجتمعت عقول البشر جميعاً ، بنسبة ذكاء لا متناهية .

وإن بداهية العقل تحكم أنه حيث وُجِد الإحكام ، كان العلم والإرادة والقدرة والحياة ، وحيث وُجِدت هذه الصفات ، كانت الذات التى تقوم بها هذه الصفات .

إن القلم الذى تكتب به والذى تشعر أنه أُعِدَّ خصيصاً لكى تكتب به يد الإنسان ، ومخزن الحبر الذى أُعِدَّ فيه لغاية ، والغطاء والثقب الموجود فيه اللذان أُعِدا لحكمة ، والنحاسة التى تعلقه بها فى جيب سترتك ، وتجويف إبرة الكتابة ، وهذا العظم الذى فيها بخطوطه ذات الفائدة و . . . . . هذا القلم الذى فيه هذه الأشياء المجتمعة ، لو حاول إنسان أن يقنعك بأنه وليد مصادفة وليس وليد علم الإنسان ، وإرادة الإنسان ، وقُدْرة الإنسان ، وحياة الإنسان ، وذات الإنسان ، فإنك لا شك تُحمِّقه أو تُجهِّله ، فكيف يخطر ببال ، أن الإنسان ، هذه الآلة الضخمة ، والمعمل العظيم ، صاحب جهاز الهضم ، وجهاز الدوران . وهذه الشجرة ذات الجذور والأوراق ، والساق

بنسغها الصاعد والهابط ، وما يكون فيها من تنفس وتفاعلات وتشكلات وإنتاج زهر وثمر . (معمل أدق تركيباً من كل ما صنعه عقل الإنسان) . وعالَم الذَرَّة بما فيه من طاقات وتحركات وتركيبات ، وما ينتج عنه من تفاعلات ، وآلاف الأمثلة من أمثال هذا وملايينه .

كل هذا وليد مصادفات ؟ !

وهل يكون العقل الذى يقول بهذا علمانى الاتجاه ؟ ! وهو يتحدى كل قواعد العلم .

﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) عبس : ١٧ (٢) يس : ٧٧

الظاهرة الثالثة

ظاهرة الحياة

(١)

إن القصد من دراسة هذه الظواهر هو الوصول إلى الله . والإيمان به ، وذلك بتحكيم قواعد العقل فى ذلك ، وعندما ندرس ظاهرة ما ، فإننا نريد دراسة الجوانب التى تشير إلى الله فيها . حيث إن فى كل ظاهرة جوانب لا تُعَد ولا تُحصَى تدل على الله .

إننا نقول هذا فى مقدمة هذه الظاهرة ، لأن بعض الناس يتوهمون أن التفكير فى الكون ، ودراسة ظواهره بعمق ، وترتيب المقدمات على النتائج ، والوصول إلى الحقائق ، ونبذ الأوهام ، والقضاء على الخرافة ، والتمسك بالقانون الذى أوصلت إليه التجربة . كل هذه المعانى مما لا يتفق مع الفكر الدينى .

ولئن وُجِد هذا عند ديانات خاطئة ، ومذاهب باطلة ، فلا يصح هذا فى الدين الحق ، ولن يوجد أبداً . لأن الحق لا يتعارض مع الحق . فإذا كان الدين حقاً ، فلا بد أن يكون كل أصل فيه ، وكل فرع من فروعه ، منسجماً انسجاماً تاماً مع الحقيقة التى قام عليها البرهان ، وإلا فإن نصاً واحداً من نصوص الدين ، يثبت تناقضه مع الحقيقة القاطعة ، كاف لأن يزعزع الثقة فى الدين كله .

* *

(٢)

ولما كانت ظاهرة الحياة من الظواهر التى كثر الأخذ والرد حول بعض

جوانبها ، كان لا بد من أن نذكر بعض القواعد التى تتحدث عن بعض حقائق الإسلام ، حتى لا نقع فى التباس ، مع ملاحظة أن هذه الجوانب ليس لها علاقة فى موضوع دلالة ظاهرة الحياة على الله ، فنقول :

١ - إن الإسلام فرضَ على الناس الفكر والبحث ، وآيات القرآن فى هذا المعنى كثيرة :

﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (١) . ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) ، ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِم ، مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٣) .

٢ - إن الإسلام فرض على الناس العلم ، والآثار الواردة فى الحث على العلم كثيرة ، وكذلك الآيات التى تبين أن العالمين بالكون أعرف بالله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاِخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (٤) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُها ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٥) .

٣ - ومن البديهى بعد هذا ، أن ما وصل إليه الفكر والعلم يفترض على المسلم أن يقول به ، ولا يقول بخلافه ، وقد يحدث أن يوجد بعض المسلمين الجاهلين ، وحتى ممن ينتسبون إلى العلم ، مَن يعارض بعض الحقائق العلمية ، ولكن فى هذه الحالة يبقى رأيهم شخصياً ، وهم فيه خاطئون ويؤاخذهم على

---

(١) الأعراف : ١٨٥ (٢) يونس : ١٠١ (٣) الروم : ٨
(٤) الروم : ٢٢ (٥) فاطر : ٢٧ - ٢٨

ذلك عامة المسلمين وعلماؤهم . ولقد قال الإمام الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » حاملاً على علماء الدين ، المنكرين للحقائق العلمية ، كمعرفة وقت الكسوف والخسوف وغيرها :

« ومَن ظن أن المناظرة فى إبطال هذا من الدين ، فقد جنى على الدين وضعف أمره ، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة ، فمَن يطّلع عليها ويتحقق من أدلتها ، ثم يقال له : إن هذا على خلاف الشرع ، لم يسترب فيه ، وإنما يستريب فى الشرع ، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل » .

إنه ليس من المعقول أن يأمرنا الله عَزَّ وجَلَّ بالبحث والعلم والنظر والمعرفة ، ثم يُحرِّم علينا أن نأخذ بنتائج هذا العلم والبحث والمعرفة ، بل على العكس إذا أمرنا بالفكر أمرنا بالأخذ بنتائج الفكر وهكذا . . .

٤ - ولكن إذا كان الإسلام ديناً علمياً والمسلم علمى التفكير والاتجاه ، وهدفه أن يصل إلى الحقيقة العلمية المركَّزة ، فليس معنى هذا أن يقبل الظن ، أو الفرضية ، أو النظرية على أنها حقيقة علمية . إن المسلم ينبغى أن يقف أبداً على أرض من صخر فى عالَم الفكر . إن الله الذى حرَّم علينا أن لا نذعن للحقيقة ، لم يرض لنا أن نقبل شيئاً دون برهان ، أو نعتبر الفرضية والنظرية حقيقة ، فنأخذ بها على أنها مُسَلَّمة .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٢) ، ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ (٥) .

---

(١) الإسراء : ٣٦ — (٢) النجم : ٢٢ — (٣) النمل : ٦٤
(٤) الأحقاف : ٤ — (٥) النجم : ٢٣

وهذا هو الفارق الكبير بين العقلية الإسلامية ، والعقلية الأخرى ، العقلية الإسلامية عقلية علمية متثبتة ، لا تقبل شيئاً دون برهان ، ولا تضع فى صف الحقائق إلا ما قام عليه الدليل القاطع ، وذلك على عكس العقلية الأخرى التى تشتط أحياناً ، فتصف ما ليس علمياً بأنه علمى وتؤمن به وكأنه قطعى ، رغم ضعف البرهان أو إمكان انهياره ، إن العقل المسلم كما يرفض ألا يكون علمياً ، كذلك يرفض أن يكون : حدسياً ، أو ظنياً ، أو متوهماً .

* *

(٣)

ومنذ قيام الإسلام كدين ، تفتَّح العقل المسلم على الحياة والعلم والتجربة، وبدأ فى حل ألغاز الكون بعقلية تريد أن تعرف كل شىء وتُخضع الكون كله للتجربة ، وتستنتج قوانينه المودعه فيه ، فقامت الحضارة الإسلامية أزهى ما تكون الحضارة ، متدرجة نحو علم أكثر وكشوف أكثر ، ومما لا شك فيه تاريخياً أن لقاح الفكر الإسلامى التجريبى ، هو الذى ولد العقل الغربى التجريبى ، الذى قامت - كثمرة من ثماره - الحضارة العلمية والصناعية الغربية ، وإذا حدث فى العالَم الغربى أن اصطدمت الحقائق التى محصتها التجربة بالدين الذى كان سائداً هناك ، فالذنب ذنب الدين المحرَّف المبدَّل الذى لا يصمد أمام الحقيقة .

ولكن هذا الشىء الذى حدث هناك لم يحدث عندنا قديماً أو حديثاً ، ولا يمكن أن يحدث ، لأن الحقيقة لا تصادم الحقيقة ، بل تدعمها ، والدين الحق دين الله ، والكون خلق الله ، ولا يمكن أن يتعارض ما خلق الله مع ما أخبر الله عنه .

ولذلك كانت ظاهرة من أعجب ما عرف العالَم ، وهى أن النص القرآنى وسع فى حال تعرضه لقضية كل حقيقة كشف العلم عنها فى هذه القضية ، وسيسع كل حقيقة يمكن كشفها فيها ، وسنرى فى بحث الإعجاز القرآنى كثيراً

من الآيات التى تعطى هذا المعنى بشكل واضح وصريح ، مثبتين كيف أن الحق لا يعارض حقاً . ولكن هذا لا يعنى أبداً أنه كلما قام إنسان ، فقال قولاً أن نُحمِّل القرآن هذا القول ، أو نتأوَّل القرآن لصالح هذا القول ، إن القرآن أمنع من أن يكون تابعاً فقد أنزله الله لِيُتبَع لا لِيَتبِع [١] . إن القرآن والحقيقة العلمية لا يتناقضان ، ولذلك فإذا ما ثبتت الحقيقة العلمية ثبوتاً كاملاً ، فُهِم النص القرآنى الذى له علاقة بهذه الحقيقة على مقتضاها ، بل فى هذه الحالة يكون النص القرآنى أسبق لتقريرها ، وإن غفل عن معناه الحقيقى الناس قروناً، نتيجة لقلَّة معرفتهم فى الكون .

* *

(٤)

وقد ذكرنا هذه المقدمات لأن دارس ظاهرة الحياة لا بد أن يطالبنا بتوضيح الرأى الصحيح فى نظرية التطور ، كنظرية تُعلِّل تنوعات الأحياء ، وظهور الإنسان ، وإليك ما نقوله فى هذا الموضوع :

١ - إن القول بأن إنساننا الحالى الذى أتى من أب واحد ، وأُم واحدة ، كان متحدراً من قرد خطأ ، لا شك فيه ولا ريب ، نقول هذا بلغة العلم ولغة القرآن ، ولا يتناقضان .

أما بلغة القرآن فلأن الله يقول : ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [٢] ، ويقول : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [٣] .

ويقول الرسول ﷺ : « إنَّ الله عَزَّ وجَلَّ ، خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم : الأحمر

---

(١) « يتبع » الأولى بضم الياء وفتح الباء ، والثانية : بفتح الياء وكسر الباء .
(٢) آل عمران : ٥٩ (٣) السجدة : ٧

والأسود وبين ذلك ، والسهل والحَزَن ، والطيب والخبيث » . (قال الترمذى : حيث حسن صحيح) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح ، عطس ، فقال : الحمد لله ، فحمد الله بإذنه ، فقال له ربه : رحمك الله يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملأ منهم جلوس - فقل : السلام عليكم . .

فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه فقال : إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم » .

وأما بلغة العلم :

١ - إن التاريخ كله ، كل سِفْر فيه ، وكل حجر من أحجاره ، وكل رواية يتناقلها الأبناء عن الآباء تذكر أن أبا البشر آدم .

٢ - الفوارق الكبيرة بين الإنسان والقرد أو أى حيوان آخر ، تثبت أنه لا صلة توالدية بين الإنسان الحالى وأى حيوان ، هذه الفوارق التى تبدأ من الناحية الجسمية وتنتهى عند الأخلاق ، وبين ذلك الفكر والعلم والإرادة . . . إلخ .

وهذه القضية هى التى جعلت حتى بعض أنصار داروين كـ « والدس » يقول : « إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الإنسان ، ولا بد من القول بخلقه رأساً » ، وقال « فرخو » : « إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوَّه بذلك » .

٣ - إن اكتشاف الكروموسومات (الصبغيات) وهى العامل فى انتقال الصفات الوراثية ، جعلت العلماء يتحرَّجون بإدعاء أن الإنسان منحدر من قرد ، وذلك أن هذه العرى الملونة ، لها عدد ثابت فى كل نوع من إنسان أو حيوان ، حيث بها يختلف النوع ويتميز الجنس .

وإذا كان العلم والقرآن يقولان بما أسلفنا ، فلا كلام لغيرهما ،

بل ولو شك العلم وقال القرآن ، لما كان عاقل إلا مع القرآن ، وذلك لأن الله الذى خلق الإنسان ، أعلم به كيف خلق : ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

أما فيما يتعلق بأنواع الحياة الأخرى ، فالذى يبدو أن العلماء الذين أيَّدوا داروين . ليسوا أكثر من العلماء الذين عارضوه ، وبمجرد أن تكون القضية فيها أخذٌ وردّ بين العلماء ، تبقى فى حدود النظريات ، ولا ترقى إلى المستوى العلمى المتين .

وإليك بعض أقوال العلماء الأختصاصيين فى هذا الموضوع والذى قبله، يقول « وولتر إدوار لامبرتس » أخصائى علم الوراثة : « وقد اتضح لى كثير من الحقائق ، فعلم الوراثة مثلاً لم يقدِّم لنا دليلاً على صحة الفرضين الأساسيين اللذين أقام عليهما « تشارلس داروين » نظريته فى نشأة الأنواع ، وهما :

١ - أن العضويات الصغيرة فى كل جيل من الأجيال ، تنزع دائماً إلى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها فى جميع الاتجاهات الممكنة .

٢ - أن التغيرات المفيدة تورث فى الأجيال التالية ، وتتراكم نتائجها حتى ينتج عنها تغيرات جسيمة .

والواقع أن أقصى ما يمكن أن يتم من التغييرات فى النباتات والحيوانات ، يمكن أن يتحقق سريعاً عن طريق الانتقاء والتربة ، ويؤدى التلقيح الذاتى فى النباتات ، أو زواج الأقارب فى الحيوانات ، إلى إنتاج أفراد ضعيفة إلى حد كبير ، ولا تتغير فى جميع الاتجاهات كما ذكر « داروين » ، إلا عندما تصيبها بعض الطفرات ، وهى قليلة الحدوث .

وتعتبر هذه الطفرات على قِلَّتها ، الأساس المادى الذى يبنى عليه علماء التطور تفسيرهم لظاهرة التطور ، ولكن هل يمكن أن تكون الطفرات حقيقة وسيلة للتطور ؟ إن الدراسة الطويلة المتصلة لهذه الطفرات فى كثير من الكائنات ، وبخاصة فى ذبابة الفاكهة ، المسماة « دروسوفيلا ميلاتوجستر »

---

(١) الكهف : ٥١

تدل على أن الغالبية العظمى من الطفرات ، تكون من النوع المميت . أما الأنواع غير المميتة منها فإن التغيرات المصاحبة لها تكون من النوع الذى يؤدى إلى التشويه ، أو على الأقل من النوع المتعادل الذى يُحدث تأثيرات فسيولوچية تُضعف من قوة الفرد . فمن الصعب إذن أن يؤدى تجمع هذه الطفرات الوراثية ، إلى التغيرات اللازمة لنشاة أنواع جديدة ، تعتبر أكثر تقدماً ورقياً من أسلافها ، وقد تؤدى الطفرة فى بعض الحالات النادرة إلى تحسين صفة من الصفات ، كما يحدث فى جناح الدروسوفيلا ، ولكن اجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الأخرى . التى تطرأ على الجناح ، يؤدى إلى تكوين حشرات أقصر عمراً وأقل قدرة على الحياة ، ولنُسلِّم جدلاً بحدوث طفرات نادرة تصحبها تحسينات تبلغ واحد فى المائة ، فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الأجيال لكى تتراكم ويظهر أثرها وينتج عنها نوع جديد ؟ لقد وضَّح « باتو » فى كتابه « التحليل الرياضى لنظرية التطور » : « إن تعميم صفة من الصفات ، عن طريق الطفرة ، فى سلالة من السلالات ، لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة . وحتى لو سلّمنا بقِدَم الأحقاب الچيولوچية كما يقدِّرها الچيولوچيون ، فمن الصعب أن نتصور كيف أن حيواناً حديثاً نسبياً مثل الحصان ، قد نشأ من سلفه الذى كان عدد الأصابع فى قدمه خمساً ، فى الفترة من العصر الحجرى حتى الآن » .

ويقول « ليكونت دى نوى » : « إن كلمة حلقة كلمة ذات أهمية كبرى فى تاريخ الكائنات الحية ، إذ لا يمكن إثبات أن شكلاً ما من الكائنات يُشكِّل حلقة حقيقية ، وقد يكون ذلك ممكناً فى بعض الحالات ، ولكنه ليس مؤكداً . وعلى أى حال يمكننا أن نقول : إنه ليس هناك شكل يعيش حالياً وهو سَلَف مباشر لشكل آخر ، فالإنسان لم ينحدر عن القرد . أما بين المستحاثات ، فإن كثيراً من الأشكال التى تُدعى أشكالاً وسطية ، ليست سوى محاولات غير ناجحة للتكيف ، وقد تكون معاصرة أو سابقة أو تالية للأشكال الانتقالية الحقيقية » .

وإن الحلقة التى يقدمها بعضهم كأهم حلقة متكاملة من حلقات التطور ، هى حلقة روابط التسلسل عند الحصان ، إذ قدَّموا ستة أشكال وسطية ، تبتدىء من الهيراكوثيريوم والإيوهيبوس من العصر الأيوسينى منذ حوالى (٥٠مليون) سنة ، وتنتهى بالحصان الحالى ، ولكن هذه الأشكال الوسطية تبدو وكأنها ظهرت فجأة ، وحتى الآن لم يُتمكن من معرفة الجسر الذى يربط بين هذه الأشكال الوسطية بسبب نقص المستحاثات ، ولكن حتى فى حالة ثبوت هذا ، فليس فى ذلك دليل على ما ذهب إليه « داروين » . إذ أن الحصان بقى حصاناً . والمراد أن يؤتى بالدليل على أن الحصان أصبح جملاً».

ويقول « ليكونت دى نوى » كذلك : « منذ البداية تلاحظ وجود روابط وفروق أساسية بين الحيوان والنبات ، فالسائل المغذِّى فى الحيوانات هو الدم ، ودم الحيوانات العليا يحتوى على مادة أساسية هى عبارة عن صباغ أحمر ، يُدعى بالهيموجلوبين كبيرة جداً ومعقَّدة للغاية ، ويختلف تركيبها بين حيوان وآخر ، والوزن الذَرِّى الأدنى (٦٩ر٠٠٠) ، يقارب الهيموجلوبين فى تركيبه الكيميائى ، ذلك الصباغ الموجود فى النباتات والأشنيات ، والذى يدعى باليخضور ، الوزن الذرى (٩٠٤) ، وبينما يتصف الهيموجلوبين بوجود الحديد فى ذَرَّته ، فإن اليخضور يحتوى على جوهر من المغنسيوم ، ومما يزيد فى تعقيد المسألة أن الدم فى بعض مفصليات الأرجل والرخويات والحيوانات الدنيا ، يحتوى على صباغ يختلف وزنه الذَرِّى تبعاً للأنواع بين (٤٠٠ر٠٠٠) و (٦ر٧٠٠ر٠٠٠) ويحتوى على جوهر من النحاس بدلاً من الحديد والمغنسيوم (بعض أنواع الحلزون مثلاً) فكيف تم الانتقال الكيميائى من صباغ لآخر ؟

« يجب أن نعترف بصراحة أنه من المستحيل بيان ذلك .

« إن بعض الأشنيات الزرقاء تحتوى على العنبكوسبانين ، بينما الأشنيات الخضراء تحتوى على الكلوروفيل ، ولا أحد يستطيع أن يثبت أن الأشنيات

الخضراء اشتُقَّت من الأشنيات الزرقاء ، لأن الفرق بين الاثنين كبير جداً ، وليس هناك شيء يستطيع أن يعلل هذا الانتقال ، لأن البيئة التى يوجد فيها النوعان مشتركة ، فلا يعلل الانتقال بتغير بيئة .

« لندع جانباً إغراء القول بأن أشياء كثيرة قد تحدث خلال (١٠٠ مليون) سنة ، فإذا لم يحدث شيء فى سنة واحدة ، فليس هناك ما يدعو - بضرب ما يحصل بمليون أو ١٠٠ مليون مرة - لأن نقول بأن شيئاً سيحدث فى نهاية ذلك الزمن ، فيجب أن تتوفر دائماً نقطة أو عدة نقاط بدء مهما كانت صغيرة، لتصبح المسألة ممكنة » .

لقد نقلنا هذه الأقوال ، لنبرهن على أن نظرية التطور ، ليست إلا من قبيل الفرضيات التى لم يقم عليها برهان قاطع ، ولولا الصهيونية العالَمية ، والشيوعية العالَمية ، كل واحدة منهما تتبناها ، لهوى فى النفس كامن ، لنقضت من زمن نتيجة للحملات العلمية المركَّزة التى قام بها آلاف من العلماء عليها ، إن بروتوكولات حكماء صهيون ، تذكر أنها هى التى مهَّدت لنجاح « داروين » ، وقصدها من ذلك تحطيم الأديان فى أنفس البشر غير اليهود.

والشيوعية تتمسك بها - كمتمسك لا بد منه ولو باطلاً - لإثبات المادية الجدلية . أما موقفنا نحن المسلمين من هذه القضية . فهو الذى ذكرناه سابقاً كموقفنا تماماً من كل شيء : ما قام عليه البرهان قبلناه ، وإلا توقفنا فيه إذا كان النص القرآنى محتملاً . أما إذا جزم النص القرآنى وشك العلم ، فنحن مع النص جزماً .

لقد أمرنا الله أن نبحث عن نشأة الحياة :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (١) ، ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (٢) .

---

(١) العنكبوت : ٢٠ (٢) العنكبوت : ١٩

ولقد أمرنا أن ننظر كيف وُجدت الأحياء : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [1] .

وعند الله علم اليقين : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [2] . فما أخبرنا عنه من ذلك لا يكون غيره حقاً ولا يكشف العلم عن سواه ، وقد ذكرنا ما قال فى هذه القضية . والآن نبدأ فى دراسة ظاهرة الحياة لرؤية الله فيها وهو المقصود من هذه الدراسة ، فنقول :

إن ظاهرة الحياة تدل على الله من أربعة جوانب :

١ - نشأتها .　　　　٢ - تنوعاتها .

٣ - الإنسان .　　　　٤ - الأخلاق .

كل جانب من جوانب هذه المعانى يدل على الله دلالة كاملة ، ورغم كل المحاولات التى بذلت لإثبات أن هذه المعانى يمكن أن تكون دون أن يكون الله خالقها ، فإن الحقيقة بقيت سافرة دائماً « أن الله هو الخالق » .

* *

(١) ، (٢)

● نشأة الحياة وتنوعاتها :

إن الملحدين يقولون : إن الحياة بدأت خلية بسيطة ، أو مجموعة خلايا ، ثم بدأ التكاثر يعمل عمله ، والتطور يعمل عمله ، حتى وصلت الحياة إلى ما وصلت إليه الآن ، ولكن هل لهم على هذا من برهان ؟ إن أكبر برهان - لو كان - هو أن يصنعوا الحياة ، خاصة والعناصر

---

(١) الغاشية : ١٧　　　　(٢) طه : ٥١ - ٥٢

التى تتركب منها الأحياء معروفة ، ونسبها معروفة ، وأجهزتها معروفة ، وكل شىء فيها معروف ، وكل شرط تحتاجه الحياة يمكن أن يتوفر فى المصنع ، فمهما كانت الظروف الأولى التى ولدت فيها الحياة يمكن أن نقدِّرها ونوجد ظروفاً مثلها ، ولكن حتى لو حصل هذا ؟ أيقول الذى صنعها : إنها وُجِدت من غير شىء ؟ أم يقول : إنها وُجِدت بعلم الإنسان ، وإرادة الإنسان ، وقدرة الإنسان ؟

إن الله عَزَّ وجَلَّ يتحدى الذين يؤمنون بغيره إلهاً مهما كان نوع هذا الإله : طبيعة كان ، أو إنساناً ، أو صنماً . أن يخلق هذا الإله المزعوم ذباباً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (١) .

ولقد سار الإنسان فى الطريق ليجرِّب حظه فى هذا التحدى ، لا ليصنع ذباباً ، بل ليصنع ما هو أقل من الذباب ، فماذا كانت النتيجة ؟

لقد كانت ما يلى :

حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماوياً ، وذلك - فى زعمها - كدليل تُثبت به مذهبها الإلحادى ، وكان أن كلَّفت بهذا الموضوع «أوبارين » رئيس المعهد الكيميائى فى الاتحاد السوڤييتى ، وطلبت منه أن يتفرغ للبحث فى أمر واحد ، وهو مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائى ؟ وبعد عمل متواصل قارب عشرين عاماً ، أعلن حوالى سنة (١٩٦٢) عن انتهائه من دراسة هذا البحث ، وأعلن عن النتيجة التى توصَّل إليها فى تقرير رسمى أذاعته جميع وكالات الأنباء فى العالَم إذ ذاك ،

---

(١) الحج : ٧٣ - ٧٤

وهى أن العلم الكيميائى عاجز عن إيجاد الحياة فى المخبر ، والعلم لا شأن له إلا بالمادة المُحسَّة .

وبدلاً من أن يعترف أن الله هو خالق الحياة ، أجاب على سؤال كانت صيغته : هل التفاعل الكيمى فى المادة قادر على بعث الحياة كما انبعثت الحياة الأولى منذ ملايين السنين وعلى الصورة التى ادعاها « أرنست هيجل » ؟

فقال : إن هذا ممكن ولكن فى كواكب أخرى غير كوكبنا هذا .

وهذا تهرب واضح من السؤال حتى لا يُحرج ، وإذن لِمَ لَمْ نستطع صناعة الحياة وكل شىء متوفر ؟

والواقع أن عامة الذين لا يؤمنون بالله يتهرَّبون من هذا الموضوع بمثل هذه الادعاءات .

إن الحياة قد جاءت من بعض الكواكب فى شكل جرثومة انسلَّت دون أن يصيبها تلف ، وبعد أن بقيت زماناً غير محدود فى الفضاء ، استقرت على الأرض ، ومن ثَمَّ تسلسلت الحياة عن تلك الجرثومة .

أو يقولون : إنها وصلتنا عن طريق نيزك أصاب أرضنا .

مثل هذا الكلام عدا عن كونه لا يُفسِّر لنا علمياً - تبعاً لقوانين الوراثة - ما نجده من أحياء ، فهو غير معقول كذلك . إذ كيف استطاعت هذه الجرثومة أن تبقى حية فى درجة الصفر المطلق فى الفضاء ؟ وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك ، فكيف نجت من الإشعاع الكثيف ذى الموجة القصيرة الذى يقتل أمثالها ؟ وإذا بقيت حية رغم ذلك فكيف وجدت لنفسها المكان الملائم ؟ وكيف وُجِد هذا الاتفاق المدهش فى الظروف حتى توالدت فبدأت الحياة ؟ وكم من السنين استغرقت هذه الرحلة حتى وصلت ؟

وفى الحالة الثانية - حالة النيزك - كيف سلمت رغم الاشتعال الذى يحدث عندما يصطدم النيزك فى وجود الهواء ؟

وإذا سلَّمنا بإمكان هذا كله ، يبقى سؤالنا دون جواب ، كيف بدأت الحياة على ذلك الكوكب الأول ؟

إن الخلية الواحدة - على بساطتها - ينبغى أن تقوم بجميع وظائف الحياة : من تغذية ، وتنفس ، وطرح ، وحرارة معينة ، ونمو وتكاثر ، وانقسام ، وحركة ، وتأثر وإفراز ، وتلاؤم مع البيئة . ولذلك فإن الخلية من التعقيد بحيث لا تقل أبداً عن أى كائن حى آخر ، ومن نوادر الاعترافات العلمية قول « بوخنر » الذى يعتبر من أشد المؤيدين لمذهب النشوء ، ومن أكثر الماديين غلواً، ومن الذى اتهموا « داروين » بأنه كان مصانعاً لرجال الدين :

« إن البت فى أمر التولد الذاتى للكرية الأولى التى نشأ عنها الأصل الأول غير متيسر ، لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولداً ذاتياً غير معروفة ، والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة ، بل إن ظهورها من الجماد فى نظر العلم معجزة ليست أقل بُعْداً عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأساً » .

ويلوح أحياناً للعلماء بصيص من أمل ، فيجمح بالكثير منهم الخيال ، ها نحن قد كدنا نصنع الحياة ، ثم لا يجدون إلا السراب ، ومن آخر ما سمعناه فى ذلك قولهم يوم اكتشفوا حمض (D.N.A.) : إن سر الحياة أصبح بأيدينا . ولكن بعد الضجة الكبيرة ، كان الجواب القاطع : إن الحياة من صنع الله . وإليك القصة كاملة :

إن بعض أمراض التبغ تتولَّد من حمَّات مركَّبة من هيولينات نووية . تقاوم مبيدات الجراثيم ، وتتصف بخواص حيوية تمكنها من التكاثر والتمثل ، ولقد تأكدت فى السنوات الأخيرة حقيقة جديدة ، ألا وهى أن هذه الحمَّات ليست إلا حموضاً نووية خالصة ، تحيط بها مادة هيولينية ، وأن الحمض النووى المكوِّن لها أحد نوعين ، إما (D.N.A.) أو (R.N.A) ولقد أمكن الآن معرفة بنية كل من هذين الحمضين معرفة تامة ، رغم تركيبهما المعقَّد جداً ، وذلك

بفضل استخدام الأشعة فوق البنفسجية والمجهر الألكترونى ، ووسائل كيماوية كثيرة أخرى .

وتبين أن هذا الحمض يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية ، تؤلف وحدة صغيرة تتسلسل وتتكرر بشكل شريط أو سلسلة طويلة ، وتقابل تلك السلسلة سلسلة أخرى مثلها ، تصطف أمامها وتلتف إحداهما حول الأخرى بشكل حلزونى ، ويربط بين السلسلتين - بمسافات متساوية الأبعاد - روابط هيدروچينية تجعل شكلها النهائى كشكل سلم لولبى أو درج مئذنة . .وأوضح العالمان «واطسون» و « وكريك » . أن عدد دورات الشريطين الحلزونيين فى الحمض يزيد عن ألف دورة ، وأن طول الشريطين أو طول الحمض لا يتجاوز ٣٠ انجستروما . ولقد قدَّر أحد العلماء أننا لو بسطنا الشريطين الحلزونيين ، ووصلنا نهاية أحدهما بنهاية الآخر ، لكان طولهما خارج النواة متراً ونصف المتر . ولكى ندرك تعقيد هذا الحمض نذكر الوزن الذَرِّى لأحد نوعيه (R.N.A.) وهو (٥ر١ × ١٠) ٦ ومع ذلك اكتشف الحمض ، واستطاع العالِم « أوشوا » من اصطناعه وأخذ على ذلك جائزة نوبل .

لقد صيغ هذا الحمض وبلور ، فكان من ذلك حمض لا قدرة له على التكاثر هو مثل الحمض (D.N.A.) الذى وجد فى التبغ والحمَّات ، كانت صيغة الحمضين واحدة ، ولكن الفرق بينهما عظيم جداً وهو الفرق بين الحياة والموت . هو الفرق بين الصنم العديم الروح ، والجسد الحى الآهل بالروح .

وبعد فهذه هى النتيجة :

إن المادة لا تعقل حتى القوانين التى تُطبَّق عليها ، فالذَرَّات إنما تطيع قواعد الألفة الكيماوية ، وقانون الجاذبية ، وتأثير درجة الحرارة . أما الحياة فهى ذلك السر العجيب الذى لا ندرى من كُنْهه شيئاً سوى آثاره .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) .

* *

يقول « ليتز » : إن كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات ، وإن كل حلقة فيها هى تركيبة من ذَرَّات ، قوامها حمض من الأحماض النشادرية ، وهى أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ، ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف فى النسبة والترتيب ، ولكننا لا نراها فى بعض الأنسجة إلا على ترتيب واحد ، ونسبة واحدة ، بغير شذوذ ولا اختلاف ، فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة فى هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التى لا تحصيها أرقامنا المألوفة .

يكفى لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية فى لغات البشر كافة ، لا تتجاوز الثلاثين ، وبتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات . فإذا كانت خلية البروتين – فى حجمها الخفى – قابلة لأضعاف هذا التكرار ، ثم لا تشاهد فيها إلا كلمة واحدة ، فى ترتيب واحد لا يتغير ، فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الإصابة فى التوفيق والتركيب .

لتقريب هذا الخيال نقول : إن الضوء يصل من طرف المجرَّة إلى الطرف الآخر فى ثلاثمائة ألف سنة ، فإذا أردنا أن نُشبِّه إصابة الخلية فى تركيبها بمثل مفهوم ، فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التى تنطلق من الأرض فتصيب هدفاً فى نهر المجرَّة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات ، وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليست بضع مئات .

ولكن البروتين ليس هو كل شىء ، بل هو جزء من خلية ، والخلية جزء من عضو ، والعضو جزء من جهاز ، والجهاز جزء من جسد ، والجسد كله

(١) الإسراء : ٨٥

من بروتيناته إلى خلاياه ، إلى أعضائه ، إلى أجهزته ، متداخل تداخلاً هائلاً، ومنسجم انسجاماً تاماً ، ومتفاعل مع بعضه تفاعلاً تاماً .

والجسم الحى الذى تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته ، لا تزال فيه بقية للعجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه ، وهى أن هذه الذَرَّات الخفية تتجمع وتتفرق وتلتئم وتنفصل على نحو يضمن لها التجدد ، أو يضمن الدوام للحياة . فيتألف كل حى من جنسين ، وتخرج من كل منهما خلية واحدة يتكوَّن منها حى جديد ، وتنقسم هاتان الخليتان - تارة أزواجاً وتارة أخرى فرادى - على الوضع المطلوب فى المرحلة المطلوبة ، ويتفق عددها فى كل نوع من الأنواع الحية بغير زيادة ولا نقصان ، وينطبع كل حى على عادات وغرائز تسوقه إلى التناسل فى موعده المقدور ، فيبنى العش قبل أن ينسل إن كان من الطيور . ويفارق الماء الملح إلى مداخل الأنهار أو الخلجان قبل أن ينسل إن كان من سمك البحار . ويمتلىء بالشوق إلى شريكه فى التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الأنواع والأجناس .

إن التعقيد الهائل فى ظاهرة الحياة ، والانسجام الهائل فيها ، ووضع كل شىء فى محله ، إنما يدل دلالة واضحة على علم وإرادة وقدرة وراءها ، بشكل غريب عند الأُمِّى ، وعلمى مقنع عند العليم .

أن تنشىء المادة لنفسها أسماعاً وأبصاراً وأفئدة . إن هذا ليس من حالات المادة التى يقبلها العقل بغير تفسير ، وكل ما قيل فى نفى العجب من تركيب الجسم الحى - لأننا نرى الآلات المادية تعمل بنظام ، وتوزع العمل فيها لمقصد معلوم ، وهدف معلوم - هو العجب ، فالعجب فى هذا التشابه بين الآلات والأجسام الحية ، لأن الآلات لا تنشأ بغير صانع ، ولا يغنينا تعليل أعمالها بقوانين الحرارة والحركة عن تجاوز القوانين إلى إرادة المهندس المسخِّر لهذه القوانين .

وقد كان الناس ينظرون بالعين المجرَّدة إلى أعضاء الجسم الحى ، فيعجبون

وسعهم من العجب لدقتها ، وتساند أجزائها ، وتعاون وظائفها ، وسريان عوامل النمو فيها بمقاديره الضرورية ، على حسب السن والنوع والفصيلة . سواء فى جسم الإنسان ، أو جسم الحيوان ، أو جسم الحشرة ، أو جسم النبات ، فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مم تتألف تلك الأعضاء ، وعلى أى نحو تتساند تلك الوظائف ، وتبين لهم أن هذه الأعضاء البارزة للعيان مجموعة من ذَرَّات لا تُرى الألوف منهما بالعين المجرَّدة ، وأن كل ذَرَّة منها تقع فى موقعها من الجسم وتعاون بقية الذَرَّات فيه ، كأنها على علم بها وبما تطلبه ، ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها ، إلا تكفَّل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها .

* *

وفى الأرض بلايين البلايين من الأحياء ، وفى كل واحد منها من العجب ما لا ينقضى، وهاك مثالاً يبين لك كثرتها ، يقول « لسترجون زرمان » أخصائى التُربة :

« أما التُربة المنتجة الخصيبة فهى تُربة حية ، يعيش بها عدد لا يُحصَى من الكائنات الدقيقة ، من حيوان ونبات ، وقد تصل نسبة الكائنات الحية التى تعيش بهذه التُربة الخصيبة إلى ما يقرب من ٢٠ فى المائة من المادة العضوية التى بها ، وقد يصل عدد هذه الكائنات الحية إلى بضعة بلايين فى الجرام الواحد من التربة » .

هذه البلايين الهائلة من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأجناس والأنواع ، كل جنس وكل نوع له خصائصه ، ومزاياه ، وشكله ، وصورته ، وطرق تغذيته ، وطرق حياته ، وكل فرد من أفراد كل جنس فيه خصائص الجنس وكل تعقيدات الحياة :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (١)

---

(١) الأنعام : ٣٨

ولكل رزقه ، وغذاؤه ، وغريزته التى يبحث فيها عن الرزق ، وأجهزته التى يهضم بها رزقه :

﴿ وَمَا مِنَ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

﴿ مَا مِن دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ (٢) .

﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ، فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣) .

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ (٤)

إن المنطق الواحد المعقول : أن الله الحى هو وحده خالق الحياة : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٥) .

ولا يستويان فى منطق العقل : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦) .

ولا يستويان كذلك عقلياً : إنسان نسب الحياة إلى المصادفة ، وآخر ينسبها إلى الله :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٧) .

وتأمل بعد هذا فى هذه القصة ، قصة أصغر مخلوق وأبسط مخلوق ، لترى أن وراء سر الحياة ، ابتداءً وانتهاءً ، نشأة وأنواعاً ، هذا المخلوق هو الأميبا : عندما نذهب إلى المعمل ، ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت

(١) هود : ٦ — (٢) هود : ٥٦ — (٣) النور : ٤٥
(٤) البقرة : ١٦٤ — (٥) النحل : ٢٠ - ٢١ — (٦) النحل : ١٧
(٧) الأعراف : ١٧٩

المجهر لكى نشاهد سكانها ، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون : فتلك الأميبا تتحرك فى بطء ، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها ، فإذا به داخلها ، وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق . بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأميبا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر .

فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول ، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيواناً جديداً كاملاً . (وقالوا : إن انقسام الخلية لا يتم إلا إذا لامستها خلية أخرى ، إذن هنا عملية زواج بين ذكر وأنثى) تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التى تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى فى أدائها إلى آلاف الخلايا أو ملايينها . ولا شك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذى بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة ، مع ملاحظة أنه موجود فى كل مكان فى العالَم ، وهو الآن على ما كان عليه من أول ما وُجِد .

وإذا دققت فى هذا الحيوان البسيط ، تجد داخله الجبلة (البروتوبلازم) ذا التركيب المائى ، والحيوية الفيَّاضة ، مركز الحركة والحياة فى جميع الكائنات الحياة ، يتحرك حركة عجيبة ، فالأميبا لا تسبح فى الماء ولا تطفو على سطح قطرة الماء أو تندفع فى جوفها ، ولكنها تتحرك كما لو كانت تنسكب أو تسيل . أما جسم الأميبا فهو كتلة عارية من « البروتوبلازم » ، وهو يختلف عن الخلية النباتية ، فى أنه لا يحيط به من الخارج جدار صلب ، بل مجرد غشاء رقيق يحدد جسمه ، وكلما تحرَّكت الجبلة (البروتوبلازم) فى اتجاه من الاتجاهات ، أطاعه ذلك الغشاء ، وتحرَّك معه فى نفس الاتجاه .

وبذلك يتغير شكل الحيوان ، وتتكوَّن له زوائد لا تلبث أن يتغير شكلها بعد قليل ، وبهذه الطريقة يتحرك الحيوان ، مستعيناً بهذه الزوائد التى تشبه الأقدام، والتى تسمى بسبب ذلك : الأقدام الكاذبة ، ومن الممكن استخدام القوة المكبرة العظمى فى المجهر لمشاهدة الحشوة (السيتوبلازم) عند اندفاعه فى الأقدام الكاذبة ، ولكى تشاهد أن جسم الحيوان يتكوَّن من طبقتين من الجبلة (البروتوبلازم) تختلفان فى كثافتيهما . أما إحداهما فهى كتلة

شفافة مائية دائمة الحركة ، وأما الأخرى فهى كتلة هلامية نصف صلبة تحيط بالطبقة السابقة إحاطة تامة .

كيف تتحرك الأميبا ؟ ما هى الأسباب التى تقوم بعمليات التغذية ؟ أجوبة كثيرة تبقى غير كافية ، مؤثرات كثيرة تؤثر على حركة الجبلة داخل الخلايا ، ولكنها مجرد مؤثرات سطحية بسيطة ، لا تستطيع أن تبين لنا لماذا تبقى حركة الجبلة دائبة لا تنقطع ، حتى عندما يزول أثر هذه المؤثرات . ومعنى ذلك أن جانباً على الأقل من أسباب هذه الظاهرة يرجع إلى الجبلة ذاته .فمن المحال إذن أن نُفسِّر ظواهر الحياة على أنها مجرد استجابات لبعض المؤثرات الخارجية .

وبهذه المناسبة نحن نعلم أنه عندما تنشطر خلية حية إلى نصفين .بطريقة التشريح الدقيق ، بحيث تكون النواة فى أحد القسمين دون الآخر ، فإن القسم الخالى من النواة يموت بعد قليل . وقد أخفقت جميع الجهود التى بُذلت للاحتفاظ به حياً ، وعلى ذلك فإن النواة هى التى تنظم العمليات الحيوية فى الخلية وتسيطر عليها ، فإذا زال هذا الإشراف توقفت الحياة .

وهكذا فى الخلية - التى تُشكِّل أبسط حيوان - ترى قُدرة الله كما تراها فى أعقد الأحياء .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١) .

إن الكون مخلوق لا خالق ، ومَن أعطى الكون أو الطبيعة صفة الخلق ، فقد أشرك بالله جهلاً وسفاهة .

فنشأة الحياة لا تُعلَّل إلا بالله ، ووجود الأنواع والأجناس لا يُعلَّل إلا بالله ، وما فى الأحياء من عجب لا يُعلَّل إلَّا بالله ، وكل جزئية من هذا كله آية على الله .

* *

(١) الأعراف : ١٩١

• الإنسان والأخلاق

الإنسان أعظم ما خلق الله ، لذلك كان أبدع ما يُعرف الله به ، فبقدر ما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه ، وبقدر ما يجهل نفسه يجهل ربه ، لذلك كانت الحكمة التى تقول : « مَن عرف نفسه عرف ربه » من أصدق الكلم التى صاغها عقل الإنسان .

وأهم شىء فى الإنسان ، صفاته الأساسية التى لا يمكن تعليلها إلا بأنها قبس من أمر الله ، ثم أخلاق الإنسان ، والصفات الأساسية للإنسان : العلم ، والإرادة ، والقدرة .

إن المادة لا تعرف نفسها ، ولا تعقل غيرها ، والمادة لا يمكن أن يكون لها خيار ، وقدرتها قدرة محدودة بإطار ، أما الإنسان فيعلم ويريد تبعاً لهذا العلم، وقدرته تنفذ على ضوء هذه الإرادة ، إن استعداد الإنسان للعلم ظاهرة من أعظم ظواهر الوجود ، إذ الإنسان وحده - من هذه المخلوقات التى نراها - عنده استعداد ليعرف كل شىء ، ويحلل ويركِّب ويقايس ويعلل ، ويقبل ويرفض ، ويتصور ، ويستطيع أن يفكر حتى يعرف مجهولاً على ضوء معلوم ، ويرسم للحياة طريقاً أو طرقاً ، ويبنى حضارة أو يهدمها .

ويتبع ظاهرة العلم ، ظاهرة التعبير حين يُعبِّر الإنسان عن كل هذا : تارة أدباً ، وأحياناً كلمة ، وأخرى فلسفة ، وطوراً منطقاً ، وبهدوء أو بشدة ، وبعاطفة أو بعقل .

إن علم الإنسان وبيانه يدلان مباشرة على الله : ﴿ الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (١) ، ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢)

---

(١) الرحمن : ١ - ٤ (٢) العلق : ٣ - ٥

والمادة لا تريد ، بل تخضع لإرادة . وهذه الإرادة لا تتغير ولا تتبدل سننها . والحيوان إن كانت له إرادة فهى إرادة غريزة ضمن أُطر معيَّنة . إطار الحياة والموت ، إطار الرزق والسفاد ، أما ما عدا هذا فهو فى بهيمية غامضة ، لا يعرف معنى الإرادة حتى يريد .

ولكن الإنسان عنده طاقة إرادة ، يرجح بها بين المتقابلين ، ويختار من بين الضدين . كلامه بإرادة ، وحركته بإرادة ، وعمله بإرادة ، إن الإنسان وحده يملك حرية الاختيار . بشكل لا مثيل له بين أجزاء العالَم المحسوس . يختار الكذب فيكذب ، ويختار الصدق فيصدق ، ويختار الخراب فيُخرِّب ، والإعمار فيُعمِّر ، طاقة هائلة من الإرادة ، يرافقها طاقة هائلة من القُدرة .

إنه بقدر ما أُعطى الإنسان من طاقة إرادة ، أُعطى قدرة عظيمة ، ومظهر هذه القُدرة إمكانية التسخير والاستفادة من كل شىء . إنه يستطيع أن يستنبت الأرض إذا لم تنبت ، وأن يحصد إذا زرع ، وأن يركب متن الريح والماء ، وأن يأكل لحم الطير والسمك ، وأن يستخرج من كل شىء ما ينفع نفسه ، وأن يترك من كل شىء ما يضره .

إن علم الإنسان ، وإرادة الإنسان ، وقُدرة الإنسان ، تدل بشكل واضح على تميز الإنسان على المادة ، وأن المادة لا يمكن أن تعطيه علماً ولا إدراكاً ولا قُدرة ولا إرادة ، بل الله وحده هو الذى يملك أن يعطى الإنسان هذا : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (١) ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (٢) ، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة : ٣١ (٢) البقرة : ٢٩ (٣) هود : ٦١

(٤) الملك : ٢٣ (٥) البلد : ٨ - ١٠

وأما الأخلاق ، فإنها تلك المشاعر التى تنتج سلوكاً ، ومحل هذه المشاعر عالم النفس عند الإنسان ، إنها عالم كامل لا نعرف عنه إلا آثاره التى نحسها فى أعماقنا ، وتظهر تارة على صفحات وجوهنا ، أو على ألسنتنا أو أيدينا .

مشاعر الرحمة والقسوة ، العفو والانتقام ، الذلة والعزة ، العدل والظلم ، الأمن والخوف ، الحرب والسلم ، الغضب والحلم ، الجبن والشجاعة ، الكبر والتواضع ، الجبروت واللين ، الهداية والضلال ، القبض والبسط ، الانخفاض والارتفاع ، التجمع والتفرقة ، الحب والبغض ، الحقد والغل ، الكراهية والحسد ، والإحساس بالجمال والإخلاص للمُثل ، ومشاعر تفيض بها النفس وكأنها أمواج بحر كبير .

نُسَاء فنبكى ، ونُسَر فنضحك ، ونعشق ونبغض مَن عشقناه ، ونرجو ونيأس .

إنها النفس أغمض ما فى الإنسان . إن تجمع بروتونات أو ألكترونات لا يُكوِّن إحساسات أخلاقية .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (١) ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٢)

إن على الإنسان ألا يخدع نفسه ، فلو فكَّر الإنسان بعمق ، ونظر بإنصاف إلى نفسه – سواء أكان عالماً أو جاهلاً – فماذا يرى ؟ إن الله يخاطب الإنسان فى القرآن : ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣) ففى النفس آيات كثيرة كلها تشير إلى أن الله هو الذى خلق .

وجود النفس نفسه آية ، وكل صفة من صفاتها الخيِّرة أو الشريرة آية .
وعدا هذا ، ففى النفس آيات أخرى تدل على أن فى هذا الكون عجائب غير مادية، تجعل الإنسان قريباً جداً مما وراء المادة . فالتنويم المغناطيسى والطرح الروحى

---

(١) الإسراء : ٨٥ (٢) الشمس : ٧ – ٨ (٣) الذاريات : ٢٠ – ٢١

والتلباثى ، وحوادث الرياضة الروحية التى يبصر أصحابها بلا أبصار . . . . .
هذه المعانى كلها تدل على أن هناك شيئاً غير المادة فى هذا الوجود ، وحوادث
قراءة الأفكار وما يحيط بها ، كلها تشير بعمق إلى أن الإنسان ليس مادة
فحسب ، وأنه عندما يموت الإنسان لا يكون قد تعطل جزء من جهازه المادى
فقط ، بل مع هذا يكون الإنسان قد فقد شيئاً آخر ، هذا الشىء المفقود هو
الإنسان نفسه، وعاد التراب إلى التراب .

وأخيراً . . إن نشأة الحياة دليل على الله ، وتعقيدات الحياة دليل على الله ،
وتنوع الأحياء دليل على الله ، ومركز الإنسان فى هذا الكون بصفاته العليا
دليل على الله ، وفى النفس البشرية - أخلاقها وعجائبها - دليل على الله ،
وهذا وحده كاف لتعرف به الله . فكيف إذا اجتمع معه ما ذكرنا سابقاً وما
سنذكر لاحقاً ؟ وكيف إذا اجتمع مع هذا وحى يتنزل ومعجزات تتحدى ؟!
وكيف إذا اجتمع مع هذا رسل صادقون صالحون أتقياء أذكياء بررة ؟!

فهل يبقى بعد ذلك كله لكافر من حُجَّة أو سبيل ؟! إلا حُجَّة الجهل وسبيل
الهوى المؤدى إلى البوار ثم النار ، ألا لعنة الله على الكافرين .

* * *

الظاهرة الرابعة ...
ظاهرة الإجابة

هذه الظاهرة لكل واحد منا تجربته الخاصة فيها ، فما من واحد منا نحن المؤمنين بالله ، وحتى غير المؤمنين ، إلا مرَّت عليه فترة فيها شدة وفيها اضطرار وفيها قلق ، توجَّه فيها إلى الله بقلب كله انكسار ورجاء وأمل ، وإذا بالكرب يزول ، والشدة تنتهى ، ويجعل الله من بعد عُسر يُسراً ، ويعود الرخاء بعد الضرَّاء . ولكنك تجد قلوباً بقيت شاكرة متذكرة زاد إيمانها ، وأخرى عادت إلى غفلتها متناسية ما ذكرته ساعة المحنة .

إن الأمر المسلَّم به ، أنه ما من نفس إلا وتلجأ إلى الله ساعة الخطر ، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى كثيراً ، فقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ ، إن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (١)

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٢) ، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَاكُمْ إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ (٣) .

﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٤)

(١) الأنعام : ٤٠ - ٤١
(٢) يونس : ١٢
(٢) الإسراء : ٦٧
(٤) يونس : ٢٢ - ٢٣

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تَشْرِكُونَ ﴾ (١) .

وقد جرت سُنَّة الله أن يجيب المضطر إذا شاء ، كائناً مَن كان حتى ولو كان كافراً بالمعنى الاصطلاحى ما دام قد توجَّه إليه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (٢)

والحوادث التى أخبر أصحابها عما جرى لهم فيها مما له علاقة بهذه الظاهرة كثيرة لا تُعَد ، فما من إنسان إلا وله قصة أو قصص ، أنا وأنت وهو . وإليك أمثلة نختارها من بين آلاف أمثالها مما يجرى كل يوم ، تدل على أن الإنسان ليس وحده ، فالله يرعاه إن كان أهلاً للرعاية ، أو يستجيب له إن دعاه بقلب مضطر ، أو يكله إلى نفسه ، وما أكثر خسارة مَن وكله الله إلى نفسه . وفى كل حالة نجد رعاية غير متوقعة ، أو استجابة غير عادية ، فإن الإنسان يلمح آثار قُدرة الله واستجابته . وفى كل حادثة من هذا النوع يقع دليل على وجود الله عَزَّ وجَلَّ . وهذه نُقُول لها علاقة بهذا المعنى :

١ - نشرت مجلة المختار « ريدر دايجست » فى عدد أكتوبر ١٩٤٤ تحت عنوان « ألا تؤمن بالصلاة والدعاء » ؟ هذه الحادثة التى صاغتها كما يلى :

« واليوم تتدفق الأدلة التى لا تُنقض من كل ناحية ، على فضل الدعاء وقوته ، وليس مما يدهش أن يتوجه الناس فى ساعة الشدة والحاجة إلى قوة خارجية ، وإنما الشىء الوحيد المدهش فى هذا ، هو أن نراه مدهشاً ، وما يصنع هؤلاء المصلون (الداعون) من الجنود والبحارة والطيارون ، إلا كما صنع « لنكولن » الذى قال فى أحلك أيام الحرب الأهلية : « بغير معونة من الله الذى هو معى لا أستطيع أن أنجح ، وبهذه المعونة لا يمكن أن أخفق » .

(١) الأنعام : ٦٣ - ٦٤ (٢) النمل : ٦٢

ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لا ينطوى على الشوق الروحانى أو على شعور باطن مبهم ، بأن هناك قوة يتوجه إليها بفطرته .

حدث لما اضطر الميجور « ألن لندبرج » - من وستفيلد بولاية نيوچيرسى - وهو يقود إحدى القلاع الطائرة للنزول فى البحر فى طريقه إلى أستراليا ، أن ساد الاعتقاد بأنه هو والتسعة الذين معه قد فُقِدوا ، وفى هذا يقول الميجور :

تمكنا من الخروج على طوقين من المطاط وكدنا لا نفعل ، ولم تكن معنا كسرة من خبز أو قطرة من ماء ، وكان رجال الطائرة كلهم قلقين إلا الشاويش « ألبرت هرناندز » المدفعى الخلفى ، وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهال ، وسرعان ما راعنا بقوله : إنه يعرف أن الله قد استمع إليه وأنه سيساعدنا ، وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة وقد تشققت شفاههم وورمت ألسنتهم ، فعجزوا عن مجاراة « هرناندز » فى التهليل والتسبيح ، ولكنهم كانوا يدعون مع ذلك ، وبعد ثلاثة أيام وقبل دخول الليل لمحوا معالم جزيرة صغيرة ، وما لبثوا أن شاهدوا ما لم يكن يجرى لهم فى خلد ، فأقبلت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الأجساد ، واتضح أن منقذيهم من أهل أستراليا الأصليين ، وهم صيادون سودو الأجسام منفوشو الرؤوس ، وقد جاءوا من داخل البلاد على مسافات مئات الأميال ، وقالوا إنهم دُفِعوا بدافع غريب إلى تغيير اتجاههم ، فجاءوا بزوارقهم إلى هذا الشاطىء المرجانى الذى لا سكان فيه ، وهناك لمحوا لندبرج وزملاءه » .

٢ - أذاع راديو دمشق فى ١٩٦٥/١/١٠ الساعة الثالثة إلا ربعاً بعد الظهر، نقلاً عن مجلة الأبحاث الطبية الصادرة فى إنجلترا ، حادثة نشرتها المجلة المذكورة بتوقيع الطبيب الذى جرت معه الحادثة ، والقصة أن شاباً بقى مريضاً بمرض مزمن مدة ثلاثة عشر عاماً ، وأعيا الأطباء دون أن يصل إلى نتيجة ، وقد دخل عليه كآخر طبيب - الطبيب الذى يروى القصة ، وبعد أن أتم

فحصه رأى أنه لا أمل منه ، وهناك سأله المريض بلهجة اليأس : لا أمل يادكتور ؟

فقال الطبيب : هناك أمل واحد فى السماء ، فجرِّب أن تدعو ، ألا تعرف أن تصلى ؟ ولأول مرة يدعو الشاب الذى دام مرضه ثلاثة عشر عاماً ، وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع ، وجد المريض معافى ، وقد شفى من مرضه الذى لم يستطع الأطباء أن يعالجوه منه .

٣ - وحدثنا شاب مصرى ممن شاركوا فى المقاومة السرية التى جرت فى مصر فى قناة السويس من (١٩٥١ - ١٩٥٤) عن ثلاثة من المقاومين ، خرجوا لينسفوا سكة الحديد فى منطقة مكشوفة . وكانت الليلة مقمرة ، والسماء صافية ، والأرض صحراوية تُرَى حركات مَن فيها عن بُعْد ، ويعرضهم هذا لنيران العدو ومطاردته ، فقال أحد الثلاثة وهم ماضون : يارب . . ولا غيمة ؟ ! فلم يلبثوا أن شاهدوا سحابة تجلل وجه القمر ، فانتشر الظلام ، مما ساعدهم على القيام بمهمتهم ورجعوا بسلام .

وكلنا سمع ما حدث يوم الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثى ، إذ اشتعلت النيران فى مدينة بور سعيد ، وضاق الأمر بالناس ، ودعوا ربهم مخلصين ، فكان المطر الذى أطفأ الحرائق يومذاك .

٤ - والناس فى كل مكان يتحدثون ، فما من مسلم إلا وله تجربة خاصة فى هذا الأمر . تضيق به السُبُل ، فيلجأ إلى الله لجوء المضطر ، فتكون الاستجابة ويحصل الفَرَج . ومن أبرز مظاهر هذا المعنى قصص الاستسقاء حيث يلجأ المسلمون إلى الله فى حالة القحط . ولهم فى ذلك آداب منها : التوبة ، ومنها الصلاة والدعاء . ومنذ زمن رسول الله ﷺ ، يتحدث المسلمون عن عجائب حصلت ، وعن أناس مجابى الدعوة استجيب لهم ، ومَن تتبع حوادث ذلك وجدها صحيحة بحيث تتحدى أدق مقاييس النقد التاريخى .

إن ظاهرة الاستجابة ظاهرة تتجدد دائماً كلما توفرت شروطها ، وهى تدل بشكل قطعى على وجود ذات علياً ، تسمع نداء المنادين وتوسلات المتوسلين ، وإذا شاءت تجيب المضطر أنَّىٰ كان وكيف كان ، مسلماً كان أو كافراً . وتجيب المسلم فى كل الأحوال إذا كان متمتعاً بشروط الاستجابة ، وكان فى الاستجابة خير له ، ولم يكن غيرها أحسن إليه منها : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢)

استجب لله يستجب الله لك .

ونحيل مَن شاء التوسع فى هذا الموضوع إلى كتاب « الفَرَج بعد الشدة » للقاضى التنوخى . ففيه ما يكفى . وإنما اختصرنا فى هذه الظاهرة . لكثرة الحوادث فيها وظهورها ، ولأن فى البحث الثانى عن « **الرسول** » ﷺ نماذج كثيرة عنها .

* * *

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) غافر : ٦٠

الظاهرة الخامسة ...
ظاهرة الهداية

إننا عندما ندرس الكون نرى فيه هداية كاملة ، من أصغر ذَرَّاته إلى أكبر أجرامه ، ومن أبسط أشكاله إلى أعقد مظاهره ، فكيف نعلِّل هذه الهداية ؟ كيف وُجِدت ؟ كيف استمرت ؟ كيف ثبتت ؟ إن هناك جواباً واحداً يقدمه العقل على ذلك ، هو وجود ذات هادية .

١ - ثعبان الماء متى اكتمل نموه ، هاجر من مختلف البِرَك والأنهار ، قاطعاً آلاف الأميال فى المحيط ، قاصداً إلى الأعماق السحيقة جنوب « برمودا » حيث ملتقى ثعابين الماء فى كل أنحاء العالَم ، وهناك يبيض ويموت . أما صغارها تلك التى لا تملك وسيلة تتعرف بها على أى شىء ، سوى أنها فى مياه قفرة فإنها تعود أدراجها ، وتجد طريقها إلى الشاطىء الذى جاءت منه أُمهاتها . ومن ثَمَّ إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة ، ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين البحار ، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكى فى المياه الأوروبية أو العكس .

٢ - الزنبور يصيد الجندب النطاط ، وينخره بإبرته فى مكان مناسب بحيث يفقده وعيه مع بقائه حياً كنوع من اللَّحم المحفوظ ، فلا يُكثر السم فيه بحيث يميته ، أو يسمم لحم صغاره إذا أكلوا منه ، ولا يُقلِّله بحيث يبقى محتفظاً بوعيه فيفر ، وبعد ذلك يحفر له حفرة فى الأرض ، ثم تأتى أُنثى الزنبور وتضع بيضاً فى المكان المناسب بالضبط ، ثم تغطى هذه الحفرة وترحل فرحة ، ثم تموت بعد أن أمَّنت وسيلة الحياة لأولادها ، وهم صغار لا يستطيعون الحركة ، ولا بد أن الزنبور قد فعل ذلك من البداية من يوم وجوده أول مرة وكرره دائماً ، وإلا ما بقيت زنابير على وجه الأرض .

٣ - الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عاماً فى ولاية « نيو إنجلند » ، يغادر شقوقه تحت الأرض حيث عاش فى ظلام مع تغير طفيف فى درجة الحرارة ، ويظهر بالملايين فى ٢٤ مايو من السنة السابعة عشر تماماً ، بحيث يضبط مواعيده للظهور فى اليوم تقريباً بهداية يعجز عنها الإنسان لولا أنه يستعمل « التقويم » .

٤ - خطر لعالِم أمريكى أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج ، بأن يضع البيض فى نفس الحرارة التى ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ، فلما جمع البيض ووضعه فى جهاز التفريخ ، نصحه فلاح أن يُقلِّب البيض إذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك ، فسخر منه العالِم ، وأفهمه أن الدجاجة إنما تُقلِّب البيض لتعطى الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذى حُرِمه ، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة .

واستمر العالِم فى عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده ولم تفقس بيضة واحدة ، وأعاد التجربة وقد استمع إلى نصيحة الفلاح أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة ، فصار يُقلِّب البيض حتى إذا أتى ميعاد الفقس خرجت الفراريج ، وآخر تعليل علمى لتقليب البيض : أن الفرخ حينما يُخلق فى البيضة ترسب المواد الغذائية فى الجزء الأسفل من جسمه إذا بقى بدون تحريك أوعيته ، ولذلك فإن الدجاجة لا تُقلِّب البيض فى اليوم الأول والأخير .

بهذه الهداية الكاملة فى عملية بقاء الجنس ، يبقى الدجاج فى العالَم ، لأنه يعلم تماماً ما ينبغى أن يفعله ، ولا بد أن ذلك فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج .

٥ - حيوان الاكسيلوكوب يعيش منفرداً فى فصل الربيع ، ومتى باض مات، فالأمهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها فى غذائها ودفاعها عن نفسها ، وهى لا تستطيع الحصول على غذائها مدة سنة كاملة ، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب ، فتحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم تجلب طلع

الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، وتحشو بها ذلك السرداب ، ثم تبيض بيضة، ثم تأتى بنشارة خشب وتجعلها عجينة لتكون سقفاً لذلك السرداب ، وتصنع بعد ذلك سرداباً آخر ، فإذا فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخَّر سنة .

٦ - يمتص جذْر النخلة العناصر الغذائية فى التربة بالشعيرات الجِذْرية ، وتصعد العصارة بالضغط الأسموزى إلى أعلى ، ويتغذى جذع النخلة بما غلظ من هذه العصارة ، أما الخلاصة فتصعد إلى حيث تُغذِّى الأجزاء العلوية ، وترتفع العصارة الدقيقة لتكوِّن الثمرة . وقمع البلحة هو مصفاتها التى تسمح بمرور المواد الغذائية تماماً إلى الداخل فقط ، وهى التى تُكوِّن الحلو من البلحة وغير الحلو من النواة ، والتى منها ينشأ جسم البلحة الطرى ، وهيكل النواة الصلب ، وبين الحلو والمر والصلب والطرى غلاف شفاف لا يكاد يُرَى ، ولم يحدث إطلاقاً أن أخطأت نخلة ، فكوَّنت نواة البلحة فى الخارج والبلحة فى الداخل ، أو كوَّنت البلحة صلبة والنواة طرية .

٧ - الحيوان المنوى يشبه العَلَق فى حركته ، له رأس مفرطح ، وعنق قصير، وذيل طويل ، ويتحرك بلولبية ذيله ، وقد أُمِدّ بقوة مقاومة ، إذ أنه فى الأجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيه ويفقد مظاهر نشاطه ، فإذا ما وجد الوَسط المناسب عادت له حيويته ونشاطه ، ويستمر فى الحياة عدة أيام متوالية فى انتظار البويضة التى يدفع بها مبيض الأُنثى - وهو جهاز التناسل عندها - ليؤدى إلى أحضانها ، ويتم كل ذلك بهداية منقطعة النظير ، إذ لا دخل لأى قوة - كائنة ما كانت : كيماوية أو حيوية أو عقلية أو إدراكية - فى توجيه الحيوان المنوى إلى بويضة الأُنثى .

٨ - فى عملية الرضاع كل شىء يتم بهداية . تنمو الغدد التى تصنع اللبن مدة الحمل ، ويدفعها إلى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان ، وفى نهاية الحمل وبدء الوضع ، تتلقى هذه الغدد من الغدة النخامية الموجودة فى قاعدة الجمجمة أمراً بالبدء فى صنع اللبن ، وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن

ثدى أمه بهداية لا حد لها ، وعملية الرضاعة عملية شاقة ، إذ إنها تقتضى انقباضات متوالية فى عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه ، وحركات متواصلة فى فكه الأسفل ، وتنفساً من أنفه ، ويقوم الطفل بهذا كله بهداية تامة من أول رضعة لساعة فطامه ، وقالوا : إن الرجل نفسه لا يستطيع أن يقوم بعملية الرضاع كما يقوم بها الطفل الذى لا يتجاوز عمره ساعات .

هذه أمثلة قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية ، فإذا ما التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق ، يرى هذه الظاهرة فى كل شىء على الإطلاق ، فهى ظاهرة تنتظم شئون الكون كله بما فيه من الألكترونات فى الذَرَّة ، إلى الذَرَّة ، إلى العناصر ، إلى الأرض ، إلى الشموس ، إلى المجرَّات بكل حوادثها ، فى كل خلية من خلايا الحيوان ، إلى كل جهاز من أجهزته ، إلى كل حيوان من وحيد الخلية إلى النحلة ، إلى الإنسان . ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (١) .

تلك كلمة القرآن ، وهى كذلك كلمة العقل ، وهى كذلك كلمة العلم ، إن هداية بلا هاد غير مقبولة عقلاً ولا علماً .

إن الله ظهر باسمه الهادى فى كل شىء ، ومع ذلك ضَلَّ الكافرون عن الله ، وأضلُّوا قلوبهم ، وهم فى ضلالهم مهتدون إلى طرق الضلال والزيغ ، إذ أن الإنسان بما أوتى من إرادة واختيار ، وبما امتُحِن به فى هذه الحياة كأثر ناتج عن هذه الإرادة ، قد رُكِّب تركيباً ظهر فيه اسم الله الهادى بما يتفق مع هذه الحرية فى الإرادة ومع هذا الامتحان .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (٣) .

---

(١) طه : ٥٠ (٢) الشمس : ٧ - ١٠ (٣) النازعات : ٤٠ - ٤١

إن الكافرين قديماً كانوا يعتبرون الدعوة إلى الله ، وتعليل كل شيء به نوعاً من الافتراء والكذب والأسطورة : ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بُلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (١) .

والكافرون اليوم يعتبرون كل كلام - غير كلامهم - لا يقوم على علم ، أو تظهر منه رائحة الخرافة ، أو فيه معنى الأسطورة . إن التشابه الكامل بين الموقفين فى القديم والحديث دليل على وحدة النفس البشرية ، وإن كان المحدَثون أكثر فلسفة وأزهى زخرفاً ، كما أن فيه دليلاً على نوع من الهداية إلى الضلال ، كهداية المهتدين إلى الهدى ، وذلك ظهور لاسم الله الهادى فى عالم الإنسان : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (٣)

إن الكافر يرى أن بإمكانه أن يُعلِّل كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون بدون الله ، والذى لا يستطيع أن يُعلِّله الآن يتصور أن باستطاعته أن يُعلِّله فى المستقبل ، وبصرف النظر عن كون هذه التعليلات علمية عقلانية أو ظنية حدسية ، فإنه مقتنع بها ولا يقبل أى تفسير آخر ولو كان علمياً وعقلياً ، لأن كثرة الاحتمالات عنده لا تُبطل ظهور الممكن الواحد ، وتعدد مظاهر الوجود على أشكال مختلفة يقنعه بأى تفسير يتوهمه بنفسه ، وذلك كأثر من استشعاره لذاته المتصفة بالعلم والقدرة والإرادة والحياة ، وخلع هذه المعانى على الكون متناسياً أن الطبيعة بمجموعها ليس لها علم وإرادة وقُدرة وحياة . إنه يقول عن كل شيء يراه : إنه ممكن ، ونحن إن لم نقل بإمكانه نكفر (نخرج عن الإسلام) ، ولكن نقول بذلك إذا وُجِد علم الله وإرادته وقُدرته ، أما بغير علم ولا إرادة فلا .

---

(١) الأنبياء : ٤ - ٥ (٢) البلد : ١٠ (٣) الإنسان : ٣

إن الله ظهر كثيراً وبطن كثيراً ، ظهوره الكثير جعل المؤمنين به كأنهم يعاينون « لو كُشف الحجاب ما ازددت يقيناً » ، وبطونه الكثير جعل الكافرين على مثل اليقين بأن الأولين واهمون ، ولا يمكن فى حكم العقل إلا أن يكون الله ظاهراً وباطناً بآن واحد : ظاهراً للجنان ، وخفياً عن العيان ، إذ ما يظهر للعيان خلقه ، وخلقه يدل الجنان عليه ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (١) .

ليس فى خفاء الله حُجَّة لكافر على كفر ، وقد رأينا هذا فى مقدمة أبحاثنا ، وفى ظهوره الحُجَّة الكاملة على الإيمان ، وإذا كان فى ضلال الضَّالين نوع هداية إلى الضلال ، إذ حرموا أنفسهم الرؤية الصافية فشاهدوا الأمور معكوسة ، فإن فى هداية المهتدين الظاهرة الكاملة على الهداية التامة . ولكن كما فى هداية المهتدين دليل على ظاهرة الهداية ، فإن فى هداية الضَّالين إلى طرق الضلال دليل عليها كما سنرى بعد ، والجميع يدل على أن هناك ذاتاً هادية .

* *

إن آيات الله التى تدل عليه واضحة جداً فى كل شىء ، ولكن الاهتداء إليها يحتاج إلى إنسانية أكثر ، إلى أخلاق الإنسان بشكل أدق : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٢) .

إنها الحقيقة التى لا تُرَد : الكبر والغفلة عن آيات الله هما طريق الكفر ، والخضوع للحق وقبوله واليقظة على آيات الله هى طريق الإيمان ، فبمزيد

(١) التغابن : ١١ (٢) الأعراف : ١٤٦

من أخلاق الإنسان ، وبمزيد من التأمل ، وبمزيد من طلب الحق ، لا بد أن يصل الإنسان إلى الله . فإذا قيل : إن المرجع فى الهداية إرادة الله . . ﴿ولَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (١) ، نقول : إن المرجع فى كل شىء إرادة الله ، وليس فى ذلك عذر لمعتذر أو متعلل أو متهرب أو رام المسئولية على غيره ، لقد قال الله : ﴿إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لمن شَاءَ منكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢) فقال أبو جهل : ذلك إلينا إن شئنا . فأنزل الله تتمة : ﴿ومَا تَشَاءُونَ إلَّا أنَ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) وهذا يعنى أن مشيئة الله محيطة بكل شىء ، ولكن لا يعنى هذا إلغاء اختيار الإنسان ومشيئته :

﴿يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (٤) .

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً ويَهْدِى بِهِ كَثِيراً ، ومَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٥) .

إن الله إذا أراد أن يُضل إنساناً ظهر له فى هذا الوجود كله باسمه المضل ، حتى لم ير فى آيات الله فى خلقه ما يدله عليه ، وكذلك فى آياته فى القرآن حتى لا يرى فيها آية تدله عليه ، وليس فى ذلك إجبار من الله له ، بل ذلك لأن الإنسان ذاته اختار الطريق الآخر كبراً وظلماً ، فصار يرى الآيات معكوسه ، فما فيه حُجَّة على الإيمان صار يعتبره حُجَّة له على الكفر ، وذلك لما قلنا كأثر من إحاطة هداية الله فى الطريقين ، والذى يتحمل المسئولية هو الإنسان ذاته .

تعالى الله أن يُسئل تغيير ما سنَّ من سُنَنه ، وعلى الإنسان أن يحقق ما طُلِب منه ضمن هذه السنن .

ويقول الكافرون : إن الله قادر على أن يهدى الناس كلهم إلى ما يحب ، فلِمَ لَمْ يهدهم ؟

---

(١) السجدة : ١٣ (٢) التكوير : ٢٧ - ٢٨ (٣) التكوير : ٢٩
(٤) المائدة : ١٦ (٥) البقرة : ٢٦

وإن الله قادر على أن يجعل العالَم خالياً من كل شر ، فلِمَ لَمْ يفعل ؟

يقولون هذا حتى يقولوا أخيراً : كون العالَم فيه ضلال وكونه فيه شر ، فذانك دليلان على أن هذا العالَم ليس من صنع الله .

ويقولون للمؤمنين : ما دمتم تؤمنون بالقضاء والقَدَر ، فما نحن فيه من انحراف قدَّره الله علينا ولا مخرج لنا من قدره ، فهو المسئول إذن ولسنا المسئولين ، فلا تلومونا ولو مرة . ألم يقل : ﴿ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ ويَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ؟ (١) .

ونقول : كلمتهم هذه قالها الكافرون من قبل ، وردّ عليهم القرآن أيَّ رد : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا من دُونِهِ من شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا من دُونه من شَىْءٍ ، كَذَلكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّة رَّسُولاً أَن اعْبُدُواْ اللهَ واجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ (٢) .

نفس اللغة القديمة للكافرين استعملها كفار عهد الدعوة الأول ، واستعملها كفار عصرنا الحاضر : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا من شَىْءٍ ، كَذَلكَ كَذَّبَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٣) .

تُرى ما قيمة حُجَّة الكاذبين ؟ يُلاحَظ فى الرد القرآنى أنه رماهم بالتكذيب لرسل الله صلوات الله عليهم ، وأنه رماهم بالجهل ، وأن بلاغ الرسل – صلوات الله عليهم – فيه حُجَّة عليهم .

إنهم نظروا إلى عموم مشيئة الله ولم ينظروا إلى مشيئتهم، فأرادوا أن يقيموا

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) النحل : ٣٥ – ٣٦ (٣) الأنعام : ١٤٨

الحُجَّة على الله بكماله ، فأقام الله عليهم الحُجَّة بمشيئتهم التى استعملوها فى غير طريقها الصحيح .

إن ما كتب الله ، وما علم الله ، وما أراد الله ، لا يسلب الإنسان اختياره ، كلاهما خطأ عظيم : أن نظن أن الله لا يعلم ماذا سيحدث ، أو نظن بأن علمه بما سيحدث يسلبنا اختيارنا . فالعلم كاشف لا مجبر ، وإذا كان علمه لا يسلبنا اختيارنا ، فكذلك إرادته وكذلك قدرته ، فالقدرة تبرز ما خصصته الإرادة ، والإرادة تخصص ما سبق به العلم .

إنه من الخطأ أن نفهم قوله : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ (١) بأنه يُجبر على الهداية ويُجبر على الضلال ، بل : ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٣) ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) إن إرادة الإنسان موجودة ، ولا يعنى هذا أن هناك شيئاً يكون خارجاً عن إرادة الله ، وعموم الإرادة الإلهية حق ، ولا يعنى هذا سلب الإنسان حريته واختياره .

وأخيراً . . لقد خلق الله كل شيء ، حسِّياً كان أو معنوياً ، من الأخلاق الفاسدة إلى الأخلاق الحسنة ، إلى الإنسان ، إلى الوجود كله ، وأعطى كل شيء هدايته ، فالكِبْر مهتد إلى طريقه ، وكذلك الحسد ، وكذلك الضلال ، وكذلك كل نوع من أنواع الضلال : وكذلك الهداية ، وكذلك أعواد شجر العنب التى تلتف حول أى شيء تصادفه ، وكذلك الشمس ، وكذلك القمر . وبالنسبة للإنسان خاصة : ذاته ، ونفسه ، وجسمه ، وكل

(١) النحل : ٩٣
(٢) الصف : ٥
(٣) الشمس : ٩ - ١٠
(٤) التكوير : ٢٧ - ٢٩

شىء فيه مهتد إلى طريقه إذا تُرِك على سجيته ، ولكن هذا الإنسان بما أُوتى من مَلَكات أهلَّته للتكليف ، جعل الخير والشر له فتنة : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (١) . ونتيجة لهذا فرض عليه أن يحاول التغلب على كثير من ميوله ورغباته وأهوائه وشهواته ، وأن يُكيِّف ذاته حسب هُدىً معيَّن ، حدَّه له الوحى الإلهى ، ليقوم بدوره على هذه الأرض ضمن طريق مخصوص

وعلى هذا فانحراف الإنسان عن هذا الطريق ضلال ، وإن كانت فروع هذا الضلال من الهداية التى أعطيت لكل شىء فى موضوعه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) . ولكن كون الإنسان يستطيع أن يتخلى عن هذا الضلال - ولو على حساب متعته - فإنه مفروض عليه أن يعمل كى يحقق معنى الابتلاء ، ولذلك كان : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النار بالشهوات » . وفى الظاهرة السابعة زيادة بيان إن شاء الله وإنما قصدنا فى هذه أن نشير إلى أن الهداية الكاملة لكل شىء - مخلوق حسِّى أو معنوى - تشير إلى ذات هادية : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (٣) ، فما من شىء إلا وعنده نوع هداية عامة ، حتى الأشياء المعنوية خيراً كانت أو شراً ، ولكن الإنسان كُلِّف بنوع من الهداية خاص ، وعليه أن يسعى لتحقيقه ، والمهم بعد : أن يكون وضح لدينا أن هذه الهداية فى كل شىء لا يمكن أن تكون إلا بالله الهادى .

* * *

---

(١) الأنبياء : ٣٥ (٢) البلد : ١٠ (٣) طه : ٥٠

الظاهرة السادسة ...
ظاهرة الإبداع

أرأيت لوحة رسام قال الناس عنها : إنها أثر عظيم ؟ قل لى : لماذا حكم الناس عليها هذا الحكم ؟ ستقول : لما فيها من إبداع فى التصوير والتعبير والجو والظلال والتناسق والتفاعل والمعرفة ، بما يثير الإعجاب فى نفس المشاهد ، إنك تقول بدهشة أو بإعجاب : لقد أبدع هذا الأثر فلان ، تُرَى ألم يخطر ببالك وأنت أمام مشهد إبداعى عظيم من هذا الكون ، أن تفكر فى المبدع الأعظم الذى أبدع هذا الكون ، أو أن الأُلفة أعمت بصرك عن الرؤية ؟ إنك لو تأملت لوجدت :

أن الجمال والإبداع يبدوان ملازمين لكل شىء فى الكون : السُحُب ، قوس قُزَح ، السماء الزرقاء ، النجوم ذات الألوان وانتشارها وانتظامها وحركاتها وهندستها ، القمر ساعة طلوعه عندما يكون بدراً أو هلالاً أو ساعة توسطه قبة الفلك ، الشمس فى غروبها وشروقها ، الفجر والأصيل ، روعة الظهر ، كل ذلك آثار إبداع عظيم . إن أعظم فنان هو الذى يستطيع أن يرسم جزءاً مما فى الكون للحظة من لحظاته بأمانة ، أما الكون فكل مظهر من مظاهره التى تتكرر ، أو تتعاقب أو تتغير ، صور من الجمال تثير فى النفس كل آن مباهج من الروائع

كل ورقة من أوراق الشجر منظَّمة أبدع نظام ، مخطَّطة أجمل تخطيط ، تخطيط وإبداع يُقلَّد ولا يُصنع ، تجده على أروع ما يكون فى الأزهار ، برشاقتها الفاتنة وتصميماتها الرائعة وألوانها الموزعة ، بشكل يحافظ كل زهر معه على سمات جماله وتناسق ألوانه ، وإنك لتجد فى كل زهرة إحساساً جديداً ، وهى بديعة عندما تجتمع جنساً واحداً ، ورائعة عندما تكون أجناساً ،

فالورق والزهر والساق والغصون والفروع والثمار ، كلها إبداع عجيب ، منفردة كانت أو مجتمعة ، موصولة أو مقطوعة .

والوادى الأخضر والنهر والأشجار الباسقة ، والصخور والجبال يجلل قممها الثلج ، أو التى تسبغ عليها السماء زرقتها من بعيد ، وكثبان الرمال الفسيحة الممتدة فى الصحراء ، والتتابع المنسق الفاخر لأمواج المحيط وتلاطمها على أرض الشاطىء ، والهدير والخرير والصفير والزفيف والحفيف ، وصوت الرعد ، ولمعان البرق ، أليس ذلك كله جميلاً وبديعاً ومبهجاً حتى عندما يخيف ؟

والطيور فوق البحر أو فوق الغابة أو على الأرض ، هاربة منك أو مذلَّلة بين يديك ، ألوانها المتناسقة ، أشكالها الزاهية ، نقشاتها الفاتنة ، تصميمها الجميل ، أصواتها العذبة ، حركاتها الفاتنة ، فى كل ريشة منها جمال ، وفى كل شعرة فيها رونق ، وفى جناحها ساعة يمتد وساعة ينقبض ، يرتفع أو ينخفض ، ما يجعل القلب يمور شعوراً حياً واغتباطاً .

قطع الثلج ذات الأشكال الهندسية المختلفة ، والخطوط البلُّلورية للعناصر والمركَّبات ، وألوان العناصر منفردة أو مركَّبة ، وتركيباتها أجزاء وكتلاً ، كروية الأرض ، وسُحُب المريخ ، ووجه القمر ، وكلف هذا الوجه ، كل ذلك جميل جميل لدرجة مدهشة تحت المجهر أو بالعين المجرَّدة .

وفى الجِمال جَمال . وفى الغنم جَمال ، وفى البقر جَمال ، وفى الماعز جَمال ، وفى الكلب جَمال ، وفى الهرة جَمال ، وفى كل ما خلق الله جَمال ، فى مراحه ومغداه ، فى سكونه وممشاه . فى حركات السمك وتموجات حشائش البحر فى الأعماق ، أو تموجات حشائش البر إذا مرَّ النسيم .

فى العظام المكسورة التى تُشفَى ، فى الجرح الذى يلتئم بعد إذ تمزق لحمه ، فى دورة الدم ، فى القلب الذى يتحطم ، ثم ينجبر بعد كسر ، فى

حبوب اللقاح ، فى النحل تمتص رحيق الزهر ، فى تقبيل الفراشة ميسم الزهرة ، فى انتقالها إلى ميسم آخر ، فى نقلها حَبَّ اللقاح إلى زهرة أخرى ، فى التلقيح ، فى التزاوج ، فى انجذاب القرين إلى قرينه ، فى كل شىء إبداع .

إن التناسق الذى نراه فى كل مخلوق ، انسجام الأعضاء بعضها مع بعض ، انسجام اللون مع الأعضاء ، جعل كل شىء فى محله ، كل ذلك إبداع يشير إلى مبدع : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (١) ، ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) ، ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ (٣) .. إن هذا الإبداع من أجلك أيها الإنسان : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٤) ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (٥) ..

. إنه من أجلك حتى تعرف ربك بأسمائه كلها ، وتشكره جَلَّ جلاله وتعبده بحب وعشق ، ولذلك جعل فيك الإحساس بالإبداع ، وحب الجمال ، فكان ذلك من أروع الإبداع لو عقل الإنسان .

لقد أعطى الإنسان قوة الفكر والتصور وبداهة الشعور ، فصار يتذوَّق الجمال ، ويسرح بخياله من البداية إلى النهاية ، ويتذكر بسرعة البرق آلافاً من لوحات الوجود ، ويخترق بخياله حُجُب السموات والأرض ، مع الإدراك الذى يجعله يتفاعل مع كل شىء ، فيهوى ويحب ، ويمل ويبغض ، ويصمم تارة للبناء وتارة للهدم ، فيجعل الحياة فناً والمعنى جهازاً ؟ إن فى ذلك كله إبداعاً سواء فى ذلك باطن الإنسان أو ظاهره ، أو ما يحيط به ، وقد يرسم

---

(١) السجدة : ٧ (٢) البقرة : ١١٧ (٣) فاطر : ١٣

(٤) لقمان : ٢٠ (٥) إبراهيم : ٣٤

الرسام صورة الجميل فيُبدع ، وصورة القبيح فيُبدع ، وفى كلتا الحالتين يبقى الإبداع إبداعاً ، وفى كلتيهما يكون محسناً ، وفى الكون جميل وأجمل ، وقبيح وأقبح ، ولكن فى ذلك كله إبداعاً ، ويظهر الإبداع فى ذلك أكثر ، فلن يُعرف الجميل إلا بالقبيح ، ولا الأجمل إلا بالجميل ، وتعدد الصور أكثر إيماءً ، وأبقى تجديداً ، وأدل فى القُدرة على الإبداع .

فلا يفوتنك يا صاح أن ترى الإبداع ولا تعرف المبدع ، أو تلمس الإحسان وتنسى المحسن ، أو تعشق الجمال ولا يمتلىء قلبك بحب خالق الجمال . بل ترنم مع الحداة :

عذابه فيك عذب وبُعده فيك قُرب
وأنت عندى كروحى بل أنت منها أحب
حسبى من الحب أنى لما تحب أُحب

* * *

الظاهرة السابعة ...
ظاهرة الحكمة

﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ، ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٤)

إن الله لا يقبل من المسلم إلا أن يرى فى كل شىء آية تدل عليه اعتقاداً ، وندبنا إلى ذلك استشعاراً ، وما لم يصل المسلم إلى هذا المستوى الرفيع ، فإنه بحاجة إلى يقظة أكثر ، وإلى فكر أكثر ، وإلى ذكر أكثر .

إن يد الله التى خلقت أرت نفسها فى خلقها ، وإرادة الله التى خصصت أرت نفسها فى مبدعاتها ، وحكمة الله ظهرت فلم تخف .

وإن قلباً لم ير آثار الله فى كل شىء لقلب أعمى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (٥) . ولعله محل للشفقة : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (٦)

لقد أمرنا الله أن ندرس آياته فى هذا الكون ، والكون ذاته يستلفت

---

(١) يونس : ١٠١ — (٢) الأعراف : ١٨٥ — (٣) يوسف : ١٠٥

(٤) الأعراف : ١٧٩ — (٥) الحج : ٤٦ — (٦) الكهف : ٦

النظر ، ولقد درسه الكافرون والمؤمنون على السواء ، وليس هناك من فارق بين الطرفين فى العلم بهذا كثرة أو قلَّة ، ولكن الفارق إنما هو باستعمال العقل وقوانينه للوصول إلى ما وراء الكون ، أو بالجمود على رؤية الحس وعدم استعمال العقل والركون إلى التراب.

ولئن أكثر القرآن من ذكر : أن فى الكون آيات لقوم يعلمون ، أو يتفكرون ، فقد أكثر كذلك من ذكر : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) . مما يدل على أن تحكيم قوانين العقل شرط لمعرفة آية الله .

وعلى هذا فكل ظاهرة من الظواهر التى نذكرها فى هذا الكون ، لا ندَّعى أننا وحدنا نعرفها ، فنحن والكافرون مشتركون فى هذه المعرفة ، ولكن الفارق أننا نعلل وجود هذه الظاهرة بلازمها العقلى الذى لا بد منه ، وهم يرفضون هذا التعليل دون دليل ، كمهندسين وقفا أمام بناء جميل جداً ، فكلاهما يستوى فى كونه يعرف كل ما فى البناء من أجزاء ، من معرفته بكيفية الترتيب ، إلى معرفته بكيفية التركيب ، إلا أن أحدهما جزم أن هذا البناء قد كان دون أن توجد خبرة وعلم وإرادة وقدرة وإبداع وحكمة وذوات تقوم بها هذه الأشياء . والآخر حكم على البداهة بأن مهندساً عالماً حكيماً .. قد أظهر هذا البناء .إن المسألة بكل بساطة هى هذه ، وعندما يُناقَش الأول عقلياً فى الحكم الذى أصدره يقول : إننى فيما يُستقبل من الأيام سأكتشف كيف قام هذا البناء بنفسه، مع أن العقل ببداهته يحكم أن زماناً أكثر سيعطينا تفصيلات أكثر فى أمر البناء ، تدلنا على صاحبه بشكل أوسع وأدق ، ولن يُلغَى حكم البداهة أبداً .

والكون كلما تكشَّف أكثر دلَّ على الله أكثر ، وهذه الظاهرة التى ندرسها الآن - ظاهرة « الحكمة » - خير شاهد على ما قلناه ، فالإنسان العادى يرى أن فى الكون حكمة فيتعرف بها على الله الحكيم ، وكلما ازداد علماً ، كلما زادت معرفته بهذه الحكمة ، فما رأينا العلم إلا كاشفاً للحكمة .

---

(١) النحل : ١٢

وإن أكبر مصيبة ابتُلِيَ بها المؤمنون فى هذا الزمان ، هى دعوى الكافرين العلم حين يكفرون وأن المؤمنين لا يعلمون ، وساعدهم على الظهور بهذه الدعوى . أن أكثرية المؤمنين فى زمننا أقل علماً بظواهر الحياة الدنيا من الآخرين ، ولكنه بدأ العصر الذى يصبح فيه المؤمنون أكثر علماً بظواهر الحياة الدنيا ، وبدأوا يثبتون أن مزيداً من العلم يعطى مزيداً من الإيمان .

* *

قالوا عن الحكمة : إنها وضع الشىء فى محله ، وبالنسبة للكون بإطلاق ، ألّا يكون شىء منه يمكن أن يكون أحسن فى غير المحل الموجود فيه ، وهذا واقع الكون ، فكل ما فيه على غاية من الحكمة ، فليس بإمكان العقل أن يتصوره أحكم مما هو فيه ، وادرس كل شىء فيه ، أجزاءً وكتلاً ، تجد الحقيقة ناصعة تقول : ما أنا عليه عَيْن الحكمة ، وهذه أمثلة :

١ - لولا الموت ماذا يحدث ؟ قالوا : لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت ، فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها ٥ سم ، وهذا جنس واحد من المخلوقات ، فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت ! ومن هنا نفهم حكمة المرض ، وحكمة وجود مسببات الأمراض من جراثيم وغيرها ، ويقول قائل : تُرَى لو كان الإنسان يموت بلا مرض أليس أحسن ؟ أو لو كان يموت بمرض واحد فمتى أصيب بمرض كانت نهايته فيه ؟ وقد غاب عن هؤلاء حكمة وجود الأمل ، وحكمة الإنذار ، وحكمة البصر ، وحكمة الاعتبار بهذا الواقع .

*

٢ - ما يخرج من الإنسان وحده ، كان يمكن أن يملأ الدنيا ، لولا وجود أنواع البكتريات والعوامل الكثيرة التى تؤثر فى تحويل وإبادة هذا الخارج ، ومن هنا نفهم حكمة وجود كثير من الموجودات التى يتصور الإنسان مبدئياً أنه لا ضرورة لوجودها ، وبالتالى يتوهم أنها موجودة لغير ما حكمة ، إنه لو لم يكن فى بعض المخلوقات إلا جمالها لكفى الجمال ، ولو لم يكن فى بعض

المخلوقات إلا أنها تخيف لكفى ذلك حكمة . إن وجود الخوف من أكبر الحكم ، إذ يعلِّم الإنسان الحذر ، وبالتالى ينمى قدراته ، ولو لم يكن فى بعض المخلوقات إلا إنها تريك محلها مع ما قبلها وما بعدها لتدلك على التناسق ، لكان ذلك وحده حكمة ، ولو لم يكن فى بعض المخلوقات إلا أنك ترى فيها عجائب خلق الله وقُدرته لكفى ذلك حكمة .

*

٣ - ويقول بعض الناس : وحتى الشر فيه حكمة ؟ ! وكذلك الألم ؟! أليس العدل خيراً من الظلم ؟ والرحمة خيراً من القسوة ؟ والرعاية خيراً من التيتم ؟ والإيمان خيراً من الكفر ؟ والقيام بالواجب خيراً من إهماله ؟ وبالتالى فما الحكمة فى وجود هذه النقائص وغيرها خير منها ؟

ويصل الأمر ببعضهم إلى أن يسألوا : لِمَ خلق الله الشر ؟ وإلى أن يقولوا : إن وجود الشر دليل على « أن لا إلَه » لأن الإلٰه ينبغى أن يكون خيِّراً ، ولا يصدر عنه إلا كل خير .

ونقول : أن نحب معرفة الحكمة فى كل شىء ، أو نسأل حتى نعرف أو نحاول المعرفة ، فهذا شىء لا غبار عليه مع ملاحظة أن القصور فى معرفة الحكمة لا يعنى عدم وجودها . وأما أن نسأل الله لِمَ فعلت ؟ ! فهذا لا ، ولا يسأل هذا السؤال إلا جاهل بجلال الله وإحاطة علمه وناسٍ محدودية الإنسان بالنسبة لعدم تناهى كمالات الله . والعالِم إذا فعل عن علم لا يسأله الجاهل لِمَ فعلت ؟ وكما قال الله عن الإنسان : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [١] . وإذن : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [٢] .

وأما أن تقول : إن وجود الشر دليل على « أن لا إلٰه » فإن هذا محض الجهل ، ومحض ضيعة الفكر ، ومحض عدم المعرفة بقوانين الكون ، فإن

---

(١) الإسراء : ٨٥ (٢) الأنبياء : ٢٣

وجود الله قائم عليه من البراهين ، بحيث يأخذ حكم البداهة عند كل إنسان لم تتعطل مَلَكاته .

وإذن ففى دائرة التعرف على الحكمة نجيب على التساؤلات الآنفة :

الزنا شر . . فهل خلق آلاته شر ؟ ! لقد خلق الله للرجل أعضاء تناسلية ، وكذلك للأُنثى ، وخلق عند الرجل شهوة وعند المرأة شهوة ، والحكمة واضحة ، فيما خلق الله ، ولكن الإنسان هو الذى نقل استعمال هذه الآلات من الوضع الحكيم الذى خُلِقت له من أجل بقاء الجنس ، إلى حالة الفوضى الجنسية ، فليس الشر إذن فى خلق هذه الأعضاء ، وإنما الشر فيما فعله الإنسان متجاوزاً الحدود التى خُلِقت الأشياء من أجلها .

وشرب الخمر شر . . فهل خلق العنب شر ؟ إن العنب فى حد ذاته شىء طيب جميل ، والحكمة فى خلقه واضحة ، والإنسان هو الذى نقل العنب من وضعه الصالح الطيب إلى الوضع الخبيث الفاسد .

واستعمال الحديد فى القتل غير المشروع شر . . فهل خلق الحديد شر ؟ ! إن وجود الحديد فيه من الحِكَم ما لا يُعَد ولا يُحصَى ، وإنما كان استعمال الإنسان له استعمالاً خاطئاً هو الشر .

والحسد فى حد ذاته - الذى هو تمنى زوال النعمة عن المحسود - شر . . فهل خلق مَلَكة التنافس عند البَشر شر ؟ ! إن مَلَكة التنافس عند الإنسان من أكبر العوامل التى تؤدى إلى ازدهار العمران وصلاح الإنسان ، ولكن الإنسان هو الذى حرف هذه المَلَكة فيه فكان الشر ، فالشر من صنع الإنسان وليس فى وجود المَلَكة .

والكِبْر - الذى هو غمط الناس وبطر الحق - شر . . فهل خلق طلب الكمال والعلو المشروع شر ؟ لقد خلق الله عند الإنسان استعداداً كى يطلب الكمال ويطلب العلو فى الكمال ، ولكن الإنسان هو الذى حرف هذا الاستعداد فجعله كِبْراً ، فكان شراً .

فالإنسان إذن هو الذى - بتنكبه عن تحقيق الحكمة فيما خلق الله - يحيل الخير إلى شر ، والصلاح إلى فساد .

والسؤال الآن : ما الحكمة فى جعل هذا الاستعداد الهائل عند الإنسان للخير والشر ؟ ! والجواب على ذلك :

(أ) كى يستعمل الإنسان طاقاته كلها فلا تعطل طاقة ، طاقة العقل ، وطاقة الإرادة ، وطاقة الروح ، وطاقة الفكر ، وطاقة الجسد ، فتظهر بذلك كمالات الإنسان فى حالة استعمال كل طاقة فى طريقها الصحيح ، وفى إيجاده التوازن بين هذه الطاقات ، وبالتالى يعرف فضل الله على الإنسان . أو فى حالة تعطيل بعض الطاقات وإطلاق بعضها الآخر على غير طريق الحكمة يظهر قُبح الانحراف عن سنن الله وآثاره السيئة ، فيرجع الإنسان إلى الطريق الصحيح .

(ب) وبهذا يعرف الإنسانُ اللهَ حق المعرفة : إذ لا يعرف أن الله غفور إلا إذا أخطأ الإنسان واستغفر ، ولا يعرف أن الله توَّاب إلا إذا تاب الإنسان بعد الذنب وأيقن أن الله يتوب عليه ، ولا تُعرف قُدرته المطلقة على خلق كل شىء من خير وشر وهدىً وضلال ، إلا إذا كان هدىً وضلال وخير وشر ، وبالتالى لا يُعرف الله حق المعرفة إلا إذا كان الإنسان على ما هو عليه ، ولذلك كانت حكمة الله فى خلق الإنس والجن هى معرفته : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) . إن الإنسان لا يعرف أن الله مجيب إلا إذا اضطر فدعاه واستجاب ، ولا يعرف أن الله رزَّاق إلا إذا شاهد وصول الأرزاق إلى كل مخلوق . ومن هنا ندرك أسرار كثير من الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ .

(جـ) والذين يطلبون أن يكون عالَمنا هذا خيراً محضاً يخطئون ، إذ أن

---

(١) الذاريات : ٥٦

الحكمة من وجود هذا الكون والإنسان وحياته الأولى فيه هى الابتلاء ، ولا ابتلاء إلا بوجود خير وشر ، وإنما ينجح الإنسان فى الامتحان إذا بذل جهداً إرادياً للخلاص من الشر والإقبال على الخير : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [1] ، ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [2] ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [3] ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [4] .

فإذا ما نجح الإنسان فى امتحان الحياة الدنيا ، كان مرشحاً للحياة فى عالَم الخير المطلق فى الآخرة : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [5] . ومَن سقط كان أهلاً لدخول دار الشر المطلق : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [6] . . جزاءً وفاقاً .

*

٤ - وإن الإنسان إذا استعمل عقله بعلم ، سيجد أن من أصغر ذَرَّات هذا الوجود ، إلى كل جزء من أجزائه ، إليه جميعاً ، ملىء بالحِكَم ، ولن يجد الإنسان شيئاً فيه قد خلا من أجمل الحِكَم ، والأمثلة التى ضربناها فى ظاهرة الهداية ، أو الإرادة أو الإبداع ، كلها تصلح أمثلة على الحكمة المبثوثة فى كل خلق الله : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [7] ، ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [8] .

وهذه أمثلة أخرى جزئية تصلح شاهدة على ظاهرة الحكمة فى إطارها الكبير :

(أ) تُرَى لو كانت عينا الإنسان فى أعلى رأسه أو فى أسفل ذقنه أو فى مؤخرته أو . . . ؟ أكان ذلك أحكم ؟ ! أم كونهما فى مكانيهما الحاليين ؟

---

(١) الأنبياء : ٣٥ (٢) الملك : ٢ (٣) الشمس : ٧ - ١٠
(٤) النازعات : ٤٠ - ٤١ (٥) الأنعام : ١٢٧ (٦) إبراهيم : ٢٩
(٧) السجدة : ٧ (٨) النمل : ٨٨

تُرَى هل هناك جزء من الإنسان كان خليقاً أن يكون أحكم فى غير محله ؟ إن إنساناً يحترم عقله لا يمكن أن يقول : نعم .

وكأبسط مثال يُضرب فى تبيان مواطن الحكمة فى أجزاء الإنسان : يد الإنسان ، إنه من الصعب جداً - إن لم يكن من المستحيل - أن تُبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف ، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته فى الوضع الملائم للقراءة ، وهذه اليد هى التى تصحح وضعه تلقائياً ، وحينما تُقلِّب صفحاته تضع أصابع يدك تحت الورقة وتضغط عليها بالدرجة التى تُقلِّبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به ، وتستعمل الآلة ، ويأكل بها الإنسان ، ويفتح بها النافذة ، ويحمل بها ما يريد ، ويلمس بها ، وقد يستعملها فى تحسس الجمال لنقل إحساساته إلى القلب ، حتى الأظافر فيها ، تحمى الأطراف لأنها أكثر تعرضاً للإصابة ، وبدون الأظافر لا تستطيع أن تحك جلدك أو تلتقط الأشياء الدقيقة . . وأخيراً ، فإن الأظافر هى الميزان الصحى للإنسان ، إن كل ما فعله الإنسان ساعدت فيه إلى أكبَر حد حركة إبهام يده ، ولو كانت غير متحركة كابهام القرد مثلاً ، فإنه لا يستطيع أن يفعل الكثير الكثير مما يفعله الآن .

(ب) شفة الجمل العليا مشقوقة كى تساعده على أكل نباتات الصحراء الشوكية ، وخفافه تناسب الرمل فلا تغوص فيه ، بخلاف ما لو كان له ظلف أو حافر ، وأهدابه الطويلة كالشبكة تحمى عينيه من ذَرَّات الرمل ، وسنامه يكنز غذاءه فيه لأمد طويل فى غيبة الطعام .

(جـ) النتح فى النبات عبارة عن تبخر الماء من النبات عن طريق الأوراق ، الأمر الذى يساعد على صعود العصارات من الأرض خلال الجذور ، وتتم عملية النتح بواسطة ثغور موجودة على الورقة ، وهذه الثغور تختلف من نبات إلى نبات بحسب بيئته ، لذلك يقل عدد ثغور النباتات

الصحراوية عن عدد الثغور فى نباتات الحقل ، مما يقلل النتح فى الأولى عن الثانية .

(د) إن الطير أخف من أى حيوان فى حجمه ، وقد اتضح نتيجة تشريحه أن عظام الطير رقيقة مجوَّفة ، لتعمل على خفة جسمه وتجعله بذلك قادراً على الطيران .

(هـ) فى القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى « البانجو » (١) تضع الأنثى بيضها فى أشهر الشتاء المظلمة - حيث تتلبد الثلوج فى الأرض والسماء - فى جيب جلدى فى الطرف الأعلى من رجلها ، ويبقى الصغار فى ذلك الجيب إلى أن يقووا ويشتد مراسهم .

(و) إن للسمك خطاً طولياً على كل جانب من جانبيه ، وبفحص هذه الخطوط بالمجهر ، وُجدت أنها أعضاء دقيقة حساسة إلى درجة كبيرة ، فإذا اقتربت السمكة من حاجز أو صخرة ، تحس هذه الأعضاء باختلاف ضغط الماء نتيجة اصطدامه بالحاجز مهما كان تماوج الماء قليلاً ، فتتفادى بذلك الاصطدام وتغير طريقها .

(ز) يطير الخفاش فى الليل حيث لا ضوء على ضعف بصره ، ولا يصطدم الخفاش بالحواجز مهما كثرت . وقد تبين أن الخفاش يرسل اهتزازات ترجع إليه بالتصادم مع أى جسم يقابله ، فيحس به دون أن يراه . إنه فى هذا شبيه بالرادار .

هذه أمثلة تعطينا صورة مبسَّطة عن الحكمة المبثوثة فى كل شىء ، وأن الإنسان كلما ازداد علماً كلما ازداد إدراكاً لظاهرة الحكمة كما قلنا من قبل ، ولكن القلوب العمى ، والآذان الصم ، والعقول المعطلة ، تبقى عاجزة فلا تعى عن الله آية : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ

---

(١) هو طائر البِطْريق ، وهو جنس من طير الماء قصير الجناحين سمين ، ويكثر فى الأصقاع الجنوبية ، ويُطلق عليه أيضاً اسم « البنجوين » .

عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢) .

تُرَى لو نسب إنسان إلى مجنون ، أصمّ ، أعمى ، أخرس ، صناعة الرادار ألا يُشَك فى عقله ؟ بل يُجزم بجنونه . أوَ ليس الذى ينسب اهتزازات الخفاش إلى المادة الصمَّاء العمياء ، البكماء ، الميتة ، أكثر جنوناً !

﴿ إنَّ الَّذينَ يُلْحدُونَ فِى آيَاتنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّار خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى آمناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

* *

إن فى الكون مليارات من شواهد الحكمة فى الذَرَّة والخلية ، وفى اجتماع الذَّرات والخلايا ، وفى كل نوع من أنواع الخلق وفى كل جزء منه ، وفى اجتماع هذا كله ، وكل شاهد من هذه المليارات لو نسبه إنسان إلى العدم لكان مجنوناً ، فكم هؤلاء مجانين أولئك الذين لا يؤمنون بالله الحكيم ! وكم هم سفهاء وقحون إذ يتهمون المؤمنين بخالق الحكمة أنهم مجانين !

﴿ نٓ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أنتَ بِنعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) يوسف : ١٠٥ (٢) الملك : ١٠
(٣) فصلت : ٤٠ (٤) القلم : ١ - ٦

الظاهرة الثامنة ...
ظاهرة العناية

١ - كل نعمة وراءها منعم ، وصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب ، تأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم ، رعاية الطفل حتى يكبر ويستغنى نعمة وراءها أب وأُم ، وجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا ، وهكذا نجد أن المعطيات المصنَّعة للإنسان كلها وراءها مباشرة مَن أعطى واعتنى .

أتُرَى هذه المعطيات الكثيرة التى ليست من صنع الإنسان للإنسان ، أليس وراءها يد ؟ إن مثل هذا الكلام تعطيل للعقل أى تعطيل !

ولما كانت هذه الظاهرة - ظاهرة العناية والنعمة على الإنسان - من أكثر الظواهر تفصيلاً فى القرآن ، لما يترتب عليها من إظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه ، وبالتالى يستخرج شكر العاقل لله العظيم ، أو إقامة الحُجَّة على الإنسان وكفره وظلمه وجحوده ، وبالتالى استحقاقه كل عقاب ، فلذلك نبقى فى جو شرح القرآن لظاهرة النعمة على الإنسان ، والعناية به وكون ذلك دليلاً على الله .

*

٢ - يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢) .

والملاحَظ أن آية من الآيتين خُتِمت بـ ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، بينما

(١) النحل : ١٨ (٢) إبراهيم : ٣٤

الأخرى خُتِمت بوصف الإنسان : ﴿ إنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ فوضح من سياق الآيتين وختامهما معان :

(أ) أن هذه النعم التى لا تُعَد ليست مصادفة بل هى من خلق الله ، وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الإنسان المؤمن ، إذا لم يقم لله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قياماً كاملاً .

(ب) أن جهل الإنسان الذى ينتج عنه الكفر ، وكبره الذى ينتج عنه الظلم ، هو الذى يجعل الإنسان لا يرى بداهة نِعَم الله ، ويجعله لا ينسبها إلى الله بإخلاص وتجرد ، بل ينسبها إلى أى شيء ، مهما كان تافهاً وباطلاً : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١) .

*

٣ – وقد أجمل الله ماهية عنايته بالإنسان ونعمه عليه فى آيات منها : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ (٢)، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٣) ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ (٤) .

وفى هذا الإجمال السريع يتبين :

(أ) أول مظهر من مظاهر نعمة الله على الإنسان ، خلقته على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة .

(ب) وثانى هذه المظاهر أن الأرض بما فيها والسموات بما فيها مسخَّرة للإنسان .

---

(١) الزمر : ٤٥
(٢) البقرة ٢٩
(٣) لقمان : ٢٠
(٤) الجاثية : ١٣

(جـ) أن هذا الإنعام كله بجزئيه على الإنسان من الله عَزَّ وجَلَّ : « واسبغ » ، « جميعاً منه » . ولا يمكن أن يكون إلا ذاك ، لأن مناسبة الكون للإنسان وإمكانه تسخيره ، لا يمكن إلّا بمسخِّر .

*

٤ – وبعد هذا الإجمال ، نذكر بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمة الله على الإنسان فى القرآن :

(أ) ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١) ، ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (٢) ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٣) .

ويقول الرسول ﷺ : « إنَّ الله خلق آدم على صورته » : أى على صفاته على رأى بعضهم ، فالله له إرادة وللإنسان إرادة ، والله له علم وللإنسان صفة علم ، والله حى وللإنسان صفة حياة ، والله سميع وللإنسان صفة سمع ، والله بصير وللإنسان صفة بصر ، والله متكلم وللإنسان صفة كلام ، والله حليم وللإنسان صفة حلم ، والله رحيم وللإنسان صفة رحمة و . . . مع ملاحظة أن الله ليس كمثله شيء ، وجوداً وصفاتاً وأسماءً وأفعالاً .

فلم ينعم على مخلوق من مخلوقاته كما أنعم على الإنسان من حيث ما أعطى من معطيات خِلْقية ظاهرة وباطنة : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٤) ، وكفى بالعقل للإنسان نعمة ، وبسبب مما أُعطَى استطاع أن يسخِّر هذا الكون بما فيه .

---

(١) الإسراء : ٧٠
(٢) الرحمن : ١ – ٤
(٣) التين : ٤
(٤) لقمان : ٢٠

(ب) ثم يعدد الله عَزَّ وجَلَّ نعمه الكونية على الإنسان ، وما أكثر الآيات فى ذلك ! ويكفى أن نعرف أن سورة طويلة هى سورة الأنعام كلها تقريباً تتحدث عن هذا الموضوع ، وكذلك سورة النحل ، ولنذكر نماذج مختارة من القرآن الكريم : ﴿ هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (١) .

* ﴿ وَهُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (٢) . إن الطريق الوحيد للإنسان كى يتعرف على الطريق الصحيح فى ظلمات البر والبحر هو النجم ، وقد كانت المسألة قديماً أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الإنسان من الاهتداء بالنجم ، ولكن فى الحاضر وإلى الأبد سيبقى اهتداء الإنسان بالنجم شيئاً أساسياً . يهتدى بها قاطع الصحراء فى سيره ، والجندى فى معركته هجوماً أو انسحاباً ، والإنسان حيث كان ، إن السفينة فى البحر إذ تسلك طريقها معتمدة على البوصلة وعلى خطوط الطول والعرض هى - حتى فى هذه - معتمدة على النجوم ، إذ لولا نجم القطب ما عُرِف طول ولا عرض ، ولولا النجوم الأخرى ما عُرِف نجم القطب . وبدون نجوم كم يتعذب الإنسان وكم يضل ، وكم تُشَل حركته ، وكم تتقلص دائرة عمله ! !

* ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

* ﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٤) .

---

(١) يونس : ٥
(٢) الأنعام : ٩٧
(٣) النحل : ١٥ - ١٦
(٤) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤

* ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) .

* ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَ يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

* ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الأنبياء : ٣٠ - ٣٣ (٢) النحل : ٤ - ١٨ (٣) النحل : ٤٨

* ﴿ وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

* ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٢) .

* ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

* ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٤) .

* ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) النحل : ٦٥ – ٦٩ (٢) النحل : ٧٢ (٣) النحل : ٧٨ – ٧٩

(٤) النحل : ٨٠ (٥) النحل : ٨١ – ٨٣

* ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ (١) .

* ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٢) .

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (٣) .

* ﴿ وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ (٤) .

* ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٥) .

* ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُواْ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ

---

(١) النبأ : ٦ - ١٦ (٢) عبس : ٢٤ - ٣٢ (٣) فاطر : ٣

(٤) فاطر : ٩ (٥) فاطر : ٢٧ - ٢٨

عَدُوٌّ مُّبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ . . . . . . ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ . . ﴾ (١) .

* ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكُمُ اللهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٢) .

* ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٣) .

ونختتم هذه الآيات بما خُتِمت به سورة الأنعام :

* ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

وفى هذه الآية نرى إجمالاً لنعم الله كلها :

١ - كون الإنسان خليفة على هذه الأرض ، وفى هذا إشارة لنوعى النِعَم : نعمة الله على الإنسان فى إعطائه الخصائص الظاهرة والباطنة التى استأهل بها تسخير الوجود ، ونعمة الله على الإنسان إذ جعل الأرض بما فيها له .

٢ - وكون الناس ليسوا سواء ، بل رَفْع بعضهم فوق بعض درجات من أكبر النِعَم . وقد يشكل على بعض الناس كيف أنَّ جَعْلَ الناس بعضهم فوق بعض نعمة ، وهذا من قصور الفهم ، وذلك لأن الحياة الدنيا لا تقوم

---

(١) الأنعام : ١٤١ - ١٤٣ ، ١٤٤ (٢) الأنعام : ٩٥ - ٩٦
(٣) الأنعام ٩٨ (٤) الأنعام : ١٦٥

إلا على هذا ، فلو كان الناس كلهم متساوين جمالاً وذكاءً وقوة وعقلاً وعلماً وإمكانات ، وكانوا كلهم فى الدرجة العليا من ذلك ، فإنه وقتذاك لا يوجد كناس ينظف أرضاً ولا عامل يقيم عملاً ، ولكن وجودهم متفاوتين جعل كُلاً مسخَّراً فى حدود طاقاته ، إلى جزء من العمل الذى تقوم به الحياة الدنيا ومصالح الخلق ، وبهذا التفاوت صلح ناس للإمرة ، وآخرون للشورى ، وآخرون للجيش . . . وهكذا .

ثم بيَّنت الآية الحكمة فى وجود هذا التفاوت بين المستخلَفين ، وهو الابتلاء فيما أوتى كل إنسان من مقام ومواهب وإمكانات ، فمَن استعمل هذه فى طريقها الصحيح نجح وإلا فقد سقط ، وقد يسقط إنسان أُوتى من المكانة أعلاها ، وينجح إنسان أُوتى من المكانة أدناها ، ومن هنا ندرك أن أكبر نعمة أنعمها الله على الإنسان إرسال الرسل له : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) . إذ الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين يدلون كل إنسان على الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يستعمل فيه مَلَكاته كلها ، بحيث لا يعطل شيئاً منها ، وبحيث لا يصطدم مع الآخرين الذين يحسنون استعمال المَلَكات ، وبالتالى تتم نعمة الله على الإنسان بالاستفادة من كل ما سُخِّر له ، ولولا هذا لتضاربت محاولات الناس من أجل الاستفادة مما سخَّر الله لهم واصطدموا ، وأصبح هذا الفضل على الإنسان بتسخير كل شئ له سبباً فى شقاء الإنسان ونزاعه كما هو واقع الآن .

من كل ما تقدَّم نخرج بما يلى : هذا الإنسان الصغير هو أكمل مخلوقات

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) آل عمران : ١٦٤

هذا الكون ، ودراسة كاملة لهذا الكون تدلنا على أنه : سماواته ، وأرضه ، وحيواناته ، ونباتاته . كله مسخَّر للإنسان لا يشذ عن هذا ذَرَّة من ذَرَّاته :

فالنباتات قديمها وحديثها يستفيد منها الإنسان مباشرة أو بطريق غير مباشر : ثمرها لغذائه ، وساقها لسياراته وشقته وناره ، وزهرها للنحل الذى يأكل منه الإنسان العسل ، وقد تكون غذاءً للشاة التى يأكل لحمها ويشرب لبنها ويستعمل صوفها لثيابه ، ويستخرج منها الدواء ويصنع منها الأدوات ، ولا ننسى أن البترول منها كان .

وهذه الأحياء ما علمنا منها وما لم نعلم ، أليست كلها للإنسان يستفيد منها بطريق مباشر وغير مباشر : دراً ، وطعاماً ، ومتعة نظر ، وقد نرى أصنافاً من الأحياء لا نعرف الآن ماذا يستفيد منها الإنسان وكيف يستفيد ، وقد يعرف فى المستقبل ، ولعل فى هذه القصة عبرة :

هناك نوع من الصبار يُستعمل كسياج للمزارع ، نُقِل إلى استراليا وزُرِع هناك ، وكانت فاجعة إذ امتد بشكل هائل لدرجة أنه كاد يغطى كثيراً من الأراضى الصالحة للزراعة ، وحار العلماء فى الأمر ، ثم عثروا على نوع من الجراثيم المرضية لا تعيش إلا على هذا النوع من النبات ، فنقلوا هذه الجراثيم بواسطة النبات نفسه ، وبدأت الجراثيم تعمل عملها حتى تقلَّص النبات إلى الوضع المناسب ، والملاحَظ أن الجرثوم لم يقض على النبات ، بل بقى النبات ولكن بالقدر الذى ينفع ولا يضر .

ولعل فى قصة اكتشاف البنسلين وفى وجوده عبرة أخرى ، على أن كل شئ فى الكون يستفيد الإنسان منه بشكل أو بآخر الآن أو غداً ، وعلى كل فإن الإنسان كما يتمتع باللقمة التى يأكلها والثوب الذى يلبسه يتمتع بالمنظر الجميل ، وكما يتمتع بالمنظر الجميل ، يتمتع بلذَّة المعرفة ، ولئن لم يكن فى

بعض المخلوقات إلا أنها تدل على حكمة الله ورحمته وسعة عنايته بمخلوقاته ، إيجاداً وإمداداً ، إحياءً وإماتة ورزقاً لكفى .

ثم أليست عناصر هذا الكون : حديده ، ونحاسه ، وأوكسچينه ، وآزوته ، وهيدروچينه ، وذهبه ، كلها مسخَّرة للإنسان ؟! ثم الأرض بساطه ومأواه ومحل معاشه وقراره ؟! وفى القمر للإنسان جذبه ونوره وجماله ومعرفتنا الوقت به ؟! وفى الشمس للإنسان جذبها وحرارتها ونورها وطاقتها التى تبثها ؟! وفى النجوم الهادية الجميلة ؟! والمياه ودورتها ؟! والرياح ودورتها ؟! ثم كون هذا الإنسان على ما هو عليه من علم وإرادة وقدرة وحكمة وعقل بحيث عرف كل شئ ، وكيف يستفيد من الأشياء ، أليس فى هذا كله الدليل الكامل على أن هذا الكون خُلق مسخَّراً للإنسان ، وأن الإنسان خُلق مسخَّراً لهذا الكون ؟! أوَ ليس فى هذا الدليل الكامل على أن هناك ذاتاً رتَّبت هذا للإنسان وأوجدت الإنسان له . ذلك الله رب العالمين ؟!

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) إبراهيم : ٧ - ٨ (٢) سبأ : ١٣

الظاهرة التاسعة ...
ظاهرة الوحدة

إن الدارس لهذا الكون ، يرى أن فيه وحدة ، تدل دلالة كاملة على أن ذاتاً واحدة بعلم واحد وإرادة واحدة وقدرة واحدة قد أوجدته ، ومظاهر هذه الوحدة كثيرة منها :

١ - التكامل فى أجزاء هذا الوجود الذى يدلنا بدقة على أن خالقاً واحداً قد رتَّب أجزاءه هذا الترتيب الدقيق المتكامل ، يقول الأستاذ البنا - رحمه الله :

الملاحظة الأولى : « هذا الهواء الذى نستنشقه مركَّب من عدة عناصر منها جزءان مهمان : جزء صالح لتنفس الإنسان ويسمى باصطلاح الكيميائيين : «الأوكسچين» ، وجزء ضار به ويسمى « الكربون » ، فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود المعجز ، أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسه النبات وهو نافع له ، ففى الوقت الذى يكون الإنسان فيه يستنشق الأوكسچين ويطرد الكربون ، يكون النبات يعمل عكس هذه العملية فيستنشق الكربون ويطرد الأوكسچين » .

ويُتمِّم عملية إيجاد التوازن بين الصادر والوارد من غاز الفحم : البحر ، فإنه يمتص كل زيادة موجودة فى الجو إذا بلغت هذه الزيادة فوق الحد المناسب .

فانظر إلى الرابطة التعاونية التكاملية بين الإنسان والنبات والبحر فى شئ هو أهم عناصر الحياة وهو : التنفس .

الملاحظة الثانية : « أنت تأكل الطعام وهو يتركب من عدة عناصر نباتية أو حيوانية ، يقسمها العلماء إلى مواد زلالية ونشوية ودهنية مثلاً ، فترى أن الريق يهضم بعض المواد النشوية ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل

الذوبان ، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللّحم وغيره ، والصفراء المنفرزة من الكبد تهضم الدهنيات وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها ، ثم يأتى البنكرياس بعد ذلك ، فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم فى عنصر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية ، والرابعة تحوِّل اللَّبن إلى جبن ، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البَشرى وعناصر النبات والحيوان والأغذية التى يتغذى بها الإنسان » .

الملاحظة الثالثة : « ترى الزهرة فى النبات ، فترى لها أوراقاً جميلة جذَّابة ، ملونة بألوان مبهجة ، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة فى ذلك أجابوك بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التى تمتص رحيق الأزهار ، لتسقط على الزهرة ، حتى إذا وقفت على عيدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها ، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأُنثى فيتم التلقيح ، فانظر كيف جُعِلت هذه الأوراق الجميلة فى الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان ، حتى يستخدم النبات الحيوان فى عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج » .

هذا التكامل تجده فى كل شىء بين الليل والنهار ، السماء والأرض ، الشمس والقمر ، الأعضاء المذكَّرة والأعضاء المؤنَّثة ، الإنسان والحيوان والنبات .

إن فى هذا الكون وحدة - مظهرها تكامل أجزائه - تدل على أن لها خالقاً وأنه واحد . أما لِمَ دلَّنا هذا على الوحدانية ؟ يجيب على هذا الأستاذ البنا فيقول : « إن التعدد مدعاة الفساد والخلاف والعلو ولا سيما وشأن الأُلوهية الكبرياء والعظمة ، وأيضاً فلو استقل أحد المتعددين بالتصرف تعطلت صفات الآخرين ، ولو اشتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم ، وتعطيل صفات الأُلوهية يتنافى مع جلالها وعظمتها فلا بد أن يكون الإله واحداً لا ربَّ غيره » .

وقد ذكر القرآن دليل التكامل على الخالق ووحدانيته فى أكثر من سورة :

* ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

* ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

* ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ

---

(١) النمل : ٥٩ - ٦٤

(٢) الأنبياء : ٢١ - ٢٥

وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

* ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ (٢) .

٢ – ومن مظاهر هذه الوحدة فى الكون ، ذلك التناسق والترتيب الذى ذكره الله فى القرآن بقوله : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٣) .

وهذه أمثلة من هذا الكون تدلك على هذه الوحدة الشاملة المتناسقة فيه :

(أ) إن الألكترون يدور على عكس عقارب الساعة ، والأرض تدور على عكس عقارب الساعة ، والشمس تدور على عكس عقارب الساعة ، والكواكب السيَّارة تدور على عكس عقارب الساعة ، والقمر وكل الأقمار تدور على عكس عقارب الساعة ، والنجوم كلها تدور على عكس عقارب الساعة ، ومجموعتنا الكبرى التى تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسية تدور على عكس عقارب الساعة . والألكترون يدور على مدار بيضوى أهليلجى ، والأرض تدور حول الشمس على مدار بيضوى أهليلجى ، وكذلك الزهرة ونبتون والمشترى والكواكب السيَّارة . ومحور الأرض مائل ، ومحور القمر مائل ، ومحور المريخ مائل ، ومحور الشمس مائل . . والعجيب أن النسبة بين النواة وألكتروناتها كالنسبة بين الشمس وكواكبها السيَّارة .

---

(١) المؤمنون : ٨٤ – ٩٢ (٢) الإسراء : ٤٢ – ٤٣ (٣) الملك : ٣ – ٤

(ب) إن ذَرَّات الوجود كلها تقوم على الزوجية ، كهرباء سالبة وكهرباء موجبة ، فإذا ارتقينا إلى النبات وجدنا عنصر الزوجية ، فإلى الحيوان كذلك ، فإلى الإنسان كذلك : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وفى الأرض نفس العناصر التى تؤلف الشمس ، ونفس العناصر التى تؤلف كل الكواكب ، والكون بكل عناصره مؤلَّف من بروتونات وألكترونات كعناصر أساسية ، ونيوترونات كشحنات كهربائية معتدلة تكون فى نواة بعض العناصر .

(جـ) فى هذا الكون قوة ومنابع قدرة ، وتحكمه قوانين ، وإنك لتجد أدق معانى التناسق والوحدة بين هذه القوى والقوانين ، وكمثال :

من منابع القوة والقدرة فى هذا الكون : الضوء ، والحرارة ، والأشعة السينية ، والأشعة اللاسلكية ، والأشعة البنفسجية ، وتحت الحمراء . . وهذه القوى كلها ترجع إلى شىء واحد هو تلك القوة الكهربائية المغناطيسية ، ولها جميعاً سرعة واحدة ، وإنما اختلافها اختلاف موجة .

ومن قوانين هذا الكون ، قانون الجاذبية الذى يحكم الوجود كله من أصغر ذَرَّاته إلى أكبر أجرامه ، الذى نصه : « كل شئ له كتلة يجذب كل شىء آخر له كتلة ، وقوة التجاذب التى بينهما تزداد ازدياداً طردياً بزيادة أى الكتلتين . فالقوة تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع البُعْد بينهما » .

والآن عرفنا أن هناك قوَّتين أو نوعين من القوة : القوة المغناطيسية الكهربائية ، وقوة الجاذبية وكلها ترجع إلى أصل واحد .

---

(١) يس : ٣٦.

ويقول آينشتاين : « إن روح العالم النظرى لا تحتمل أن يكون فى الوجود شكلان للقوى لا يلتقيان : شكل للجاذبية القياسية ، وشكل للمغناطيسية الكهربائية » .

(د) وهاتان قصتان تدلان على التناسق أولاً ، وفى التشابه بينهما دليل على الوحدة الكونية :

الأولى : أن اختلاف العناصر الأصلية فى هذا الكون ، أثر عن اختلاف عدد ألكتروناتها وبروتوناتها ، والوزن الذَرِّى أثر من آثار هذا العدد ، وخواص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد ، وقد استطاع العالِم الروسى « مندليف » أن يُصنِّف العناصر بحسب وزنها الذَرِّى ووضع لها جَدولاً على هذا الأساس ، وكان ترتيب العناصر فى هذا الجدول متدرجاً حسب قانون دورى تخضع له العناصر ، بحيث تُشكِّل سلماً متدرجاً صاعداً ، ولكن « مندليف » فوجىء بفراغ كالفراغ الذى سنذكره بين المريخ والمشترى .

إذ أنه وُجِد أن درجات السلم الدورى للعناصر تطرد بتتابع لا فراغ فيه ، إلا فى ثلاثة عناصر ، فإما أن يكون هذا القانون الدورى غير مطرد وغير صحيح ، وإما أن يكون صحيحاً ومطرداً ، فلا بد حينئذ من وجود هذه العناصر المفقودة فى نفس تلك الدرجات الفارغة ، وكان « مندليف » واثقاً من صحة قانونه الدورى ، فأخذ يؤكد أن هذه العناصر الثلاثة المفقودة لا بد من وجودها على الأرض ، بل إنه استطاع على أساس وزنها الذَرِّى الذى يأتى فى الدرجات الفارغة ، أن يحدد كل الخواص الكيماوية التى لها كأنه يراها ، وقد رأى « مندليف » قبل موته صحة نظريته العلمية ، واكتشف العلماء العناصر المفقودة بكل خصائصها كما حددها « مندليف » .

الثانية : أقرب الكواكب إلى الشمس عطارد وبُعْده ٣٦ مليون ميل ، فالزهرة ومتوسط بُعْدها ٦٧ مليوناً ، فالأرض ٩٣ مليوناً ، فالمريخ ١٤٢ مليوناً ، فالمشترى ٤٨٤ مليوناً ، فزحل ٨٨٧ مليوناً ، فأُورانوس ١٧٨٢ مليوناً ،

فنبتون ٢٧٩٢ مليوناً من الأميال ، ويهمنا أن نعرف النسبة فى هذه الأعداد .إن أبعاد هذه السيَّارات عن الشمس جارية على نسب مقدَّرة ومطردة تسير فوق (٩) منازل : أولها الصفر ، ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (٣) ، ثم تتدرج مضاعفة هكذا : (٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ - ٣٨٤) . فإذا أُضيف إلى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضُرِب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بُعْد السيَّارة التى فى منزلة العدد عن الشمس ، أى أنه بإضافة (٤) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤ - ٧ - ١٠ - ١٦ - ٢٨ - ٥٢ - ١٠٠ - ١٩٦ - ٣٨٨) . فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه ، وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين ، يظهر لنا بُعْد السيَّارة التى هى فى منزلة ذلك العدد عن الشمس ، فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بُعْده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، وبما أن منزلته فى البُعْد هى الأولى فيكون رقمه (٤) ، فإذا ضربنا (٤) فى (٩) يكون حاصل الضرب (٣٦ مليون ميل) ، وهكذا تسير النسبة فى بُعْد كل سيَّارة عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة .

ولكنهم وجدوا أن منزلة العدد (٢٨) ليس فيها كواكب ، بل يأتى بعد العدد (١٦) - الذى صاحبه المريخ - العدد (٥٢) الذى صاحبه المشترى ، فما هو السر فى هذا الفراغ ؟ إما أن تكون النسبة التى اكتشفوها غير مطردة ، وإما أن يكون هناك كوكب غير منظور فى مرتبة العدد (٢٨) على بُعْد (٢٥٢ مليون ميل) عن الشمس ، أى بين المريخ والمشترى ، وأخيراً وجدوا هذا الشىء الذى لا بد من وجوده ، ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً ، بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها فى الفراغ المذكور الذى بين المريخ والمشترى ، أى فى نفس المنزلة التى حسبوها من قبل فارغة ، فكأنه كوكب تحطم .

هاتان قصتان متشابهتان فى قضيتين مختلفتين ، كل واحدة منهما تتمم الأخرى لتكملا عندك الشعور بأن يداً واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصره وجزئياته وكليَّاته .

(هـ) وللنجوم قصة . . فقد عرف الإنسان شيئاً من مواقع النجوم ، وعرف أن لها أقداراً ثابتة بحسب نورها وعددها ، عدُّوا منها فى الماضى البعيد ستة أقدار ووقفوا ، ثم ما زالوا يكتشفون الجديد ، حتى وصلوا إلى القدر العشرين ، ثم إلى القدر الحادى والعشرين ، والعجيب فى هذه الأقدار أنها تسير مترقية أو متدنية - بحسب عدد النجوم تارة ، وبحسب قوة نورها أخرى - فى نسب مدهشة تطرد فى عدد النجوم ، فتزداد تباعاً من قدر إلى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الأول (١٤) نجماً ،ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ فى القدر العشرين (٧٦ مليون) نجم ، ويبلغ فى القدر الحادى والعشرين (مليارى) نجم ، أما فى قوة النور فقد شوهد أن تلك الأقدار تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد النجوم فى القدر زادت قوة النور ، وأما بعد العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور فى التضاؤل .

(و) ومن مظاهر هذه الوحدة فى هذا الكون اتصال أفق النبات بأفق الحيوان ، واتصال أفق الحيوان بأفق الإنسان ، فترى فى عالَم النبات تدرجاً من أدنى إلى أعلى مع التشابه ، وتجد أعلى آفاق النبات متصلاً بأدنى آفاق الحيوان ، وأعلى آفاق الحيوان متصلاً - نوع اتصال - بأُفق الإنسان ، حتى حسب الحاسبون أن هناك بذرة أولى كان منها تطور وارتقاء حتى أصبحت الأحياء على ما هى عليه . وقد ناقشنا هذه النظرية وبيَّنا بطلانها فى ظاهرة الحياة ، ولكن القول بها دليل على ما بيَّناه من أن فى أحياء هذا الكون وترقياتها وحدة تدل على وحدة الصانع الذى خلقها أجناساً وأنواعاً ، وجعل بعضها أرقى من بعض : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (١) .

(ز) ومن مظاهر الوحدة فى هذا الكون أن المادة كلها من نور ، إذ أن

(١) الانعام : ٣٨

عناصر المادة كلها تؤول إلى ذَرَّات وكهارب ، وأن هذه الذَرَّات والكهارب تنشق فتؤول إلى شعاع .

(ح) ومن مظاهر الوحدة أنك تجد أن أجِنَّة الحيوان والإنسان فى الشهور الأولى من الحمل متشابهة تشابهاً تاماً ، فإذا بهذا التشابه يخرج منه ذلك الخلق المختلف .

* *

وهذه المظاهر كلها تدل على التنسيق والترتيب ، فإذا أضفنا إليها ظاهرة التكامل ، وجدنا – لا شك – أن ذاتاً واحدة ، بعلم واحد ، بإرادة واحدة ، بقدرة واحدة ، هى صانعة هذا كله .

أما لِمَ نسبنا هذا الوجود والوحدة فيه إلى خالق ؟ ولِمَ حكمنا أن هذا الخالق واحد ؟ فهذا ما سيأتيك الجواب عنه فى الفصول الثلاثة التالية بالتفصيل :

١ – السببية . ٢ – الطبيعة . ٣ – التوحيد .

وهذه الفصول الثلاثة منقولة من كتاب « الوجود الحق » للدكتور حسن هويدى .

* * *

السـببية

منذ امتياز هذا الإنسان بالإدراك وإشراق أشعة عقله على الوجود ، تساءل - ولا يزال - عن مبدئه ومنتهاه ، فهو يتساءل من أين أتى وإلى أين يصير ؟ وهو إذ ينصرف فكره إلى أن وروده المباشر إلى هذا العالَم إنما كان من رحم أُمِّه ، أو من نطفة أبيه ، لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة ، دون النظر إلى المبدأ الأول ، والبحث عن السبب الأساسى الذى ترجع إليه جميع الأسباب .

ولهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية ، والذى وُلِد معها ، وما زال يلازمها ، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل ، فنشأت أحكام مختلفة ، ونظريات متباينة ، وكان منهم مخطىء ومصيب . غير أننا إذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من السماء والأرض ، نرى أن المطر ينهمر من سحاب ، وأن الثمر يحصل من شجر ، وأن الشجر ينبت من الماء والتراب ، وأن الماء ينشأ من عنصرى « الأوكسچين » و« الهيدروچين » ولم يشاهد الإنسان منذ فتح عينيه على الوجود أن حادثاً حدث من غير سبب ، أو أن شيئاً وُجِد من غير مُوجِد ، حتى أضحى هذا المعنى - بحكم الواقع القاهر - لا يتصور العقل خلافه ولا يطمئن إلى غيره ، ولا يأبى الإقرار به إلا عقل مريض شأن المعتوهين ، أو عقل قاصر شأن الطفل الذى يكسر الإناء ثم يقول : إنه انكسر بنفسه ، ولذلك وجدنا ذلك العربى قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية ، فنادى نداءه المشهور : « البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا تدل على الصانع الخبير » .

لهذا الواقع الصريح ، والإدراك القاهر ، وجريان الحوادث أبداً على هذا القانون ، أضحى هذا المبدأ مسلَّماً به فى كتب الفلسفة ، وسمى بـ « مبدأ

السببية » وهو أول مبادىء العقل المدبرة للمعرفة ، لأنه أساس الأحكام العقلية والمحاكمات المنطقية ، ولو التفتَ إلى كلماتك التى تخاطب بها الناس صباح مساء ، والأحكام التى تنظم بها شئون حياتك ، لوجدتها لا تخلو فى أى مرحلة من المراحل من الاستناد إلى مبدأ السببية .

إذن . . فقولنا : « لا بد لكل حادث من مُحْدِث » أمر يقينى مسلَّم به ولا يقبل العقل غيره ، وبالتالى محال على حادث أن يحدث بذاته ، وعلى شىء أن يُوجَد بغير مُوجد ، وإليه الإشارة فى القرآن الكريم : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (١) . نقول بناء على هذه القاعدة : إن عالمنا هذا من أرض وجبال ، وشجر ودواب ، وكواكب وشموس ، لا بد له من مُحْدِث ، وإن هذه الحوادث الفرعية الكثيرة ، مندفعة عن أسباب ، وهذه الأسباب مندفعة عن أسباب أخرى أقل من الأولى ، ولا بد أن نصل - بالنتيجة - إلى سبب لجميع هذه المسببات ، ومُحْدِث لجميع هذه الحادثات ، لأننا كلما رجعنا إلى الأصل الذى اندفعت عنه المسببات ، قلَّت العوامل الدافعة ، حتى نصل أخيراً إلى مسبب واحد . كنظرك إلى أغصان الشجرة المتعددة المتشابكة ، فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها ، ذهبت إلى قليل من كثير ، حتى تنتهى إلى ساق واحدة ،وأنك تجد لهذه أمثلة كثيرة ، هى من الظهور بمكان لا تحتاج معه إلى الوقوف الطويل وضرب الأمثال .

إذن . . فإنكار مُحْدِث للحوادث ، ومُوجِد للوجود ، تناقض مع العقل ، وإقامة على الخطأ ، ولعله لهذا الإلزام المنطقى الذى لا مناص منه ، سمَّاه « ابن سينا » : بـ « الواجب الوجود » حفاظاً على حُرمة العقل من أن يوصم بالتخليط والتناقض ، أو بالبلاهة والتبلد ، إذ يستحيل أن ينبثق الوجود من العدم .

هذا وإن قِدَم المبدأ ، أو قول كثيرين به ، أو ظهوره بمظهر البديهية لا يقضى

---

(١) الطور : ٣٥

عليه ، ولا يُخرجه من الحق إلى الباطل ، ما دام العقل يمليه ، والواقع يؤيده ، إلا إذا كان الداعى إلى الإنكار ، استكباراً على كل قديم ، أو عقوقاً للمنطق السليم ، أو جرياً مع كل هوى سقيم ، شأن الحمقى والمرضى والمغرورين .

وقد يقول قائل : إن هذا المُحْدِث لجميع الحوادث هو الطبيعة – وسيأتى الكلام على الطبيعة ، أو يقول : إذا أقررنا بوجود الخالق ، فمَن الذى أوجد الخالق ؟ – وسيأتى تفصيل ذلك [1] .

والذى نريد أن نخلص إليه الآن واضحاً مجزوماً به : لا بد لكل حادث من مُحْدِث ، إذن فلا بد لهذا العالَم من خالق .

هنا قد يثير بعض النُقَّاد قضية قِدَم العالَم وحدوثه ، فيقول : إن هذه القاعدة تستقيم إذا سلَّمنا بحدوث العالَم ولم نقل بقِدَمه .

ونقول : إن البرهان ملزم بالقول بحدوث العالَم ونفى قِدَمه ، فقد قال الإمام الغزالى بناء على ملاحظة الحركة والسكون : إن دورة من الفلك ، إما أن تكون شفعاً أو وتراً ، فإن كانت شفعاً فقد أتمت عدداً فردياً ، وإن كانت وتراً فقد أتمت عدداً زوجياً ، إذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود ، ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً ، ولو استمر الناقد فقال : إن أصل العالَم « هيولاه » قديم ، والحركة طارئة ، قلنا له : من أين طرأت الحركة به ، فهو إذن إقرار منه صريح بوجود مرجح آخر أثَّر على العالَم بإيجاد الحركة ، بل هو استعجال فاصل للإقرار بوجود خالق للعالَم . فالناقد بين أمرين : إما أن يرجع إلى قولنا بالحدوث فيعترف بالخالق ، أو أن يقر بوجود المرجح وهو اعتراف بالخالق ، إذن ، فنقد الناقد واه لم يصل إلى القرارة ولم يثبت للنقد ،

---

(١) مرَّ معنا تفصيل هذا فى الظاهرة الأولى ، ولذلك لم ننقل كلام الأستاذ فيه .

والقول بقِدَم العالَم باطل لا يسنده برهان [1] ، وهكذا تنهار « المادية الجدلية » التى تقول بقِدَم العالَم ، هرباً من الإقرار بوجود خالق للعالَم ، وتفلتاً من البرهان الملزِم ، والدليل القطعى .

وقد تستغرب قولى بانهيارها بهذه السرعة ، ولكنى أقول : إن عِقداً من النظام لو بلغ ألف حبة لانفرط كله بحل العقدة الأولى . وإن لم ترد ذلك ، فاحذف من المادية الجدلية كل ما بُنى على أساس « قِدم العالَم » من الأحكام ، فأول حكم تهدمه من أحكامها الأساسية إلحادها فى الخالق ، وعند القول بخالق الوجود ، تنشأ أحكام أخرى تهدم أحكامها الفرعية كما سترى ، دون أن يكون البحث موجهاً إلى الفروع خاصة ، ولكن بروز الحقيقة فى الأصل يهدم بصورة عفوية كل باطل فرعى .

* * *

(١) بل القول بالحدوث هو الذى تسنده عامة البراهين كما رأينا فى الظاهرة الأولى .

الطبيعـــــــة

بعد ما تبين لك ، بما لا يقبل الشك ، وجود الخالق الأول ، وأنه الكامل المطلق ، وأن السؤال عن خالق الكمال المطلق لا يصح ، وتبددت أمامك تلك الشبهات ، بقيت شبهة من شبهات العصر ، وضلالة أخرى من ضلالاته ، وهى - كما سيظهر لك - مصطنعة كما تُصطنع الأصنام ، مخيمة على الأحلام كما تُخيِّم الأوهام ، ولكنها بكل أسف ، مع اصطناعها هذا ، وعدم استنادها إلى أساس ، نجدها مسيطرة على عقول كثير ممن يدَّعون الثقافة والمعرفة ، وقد انطلت عليهم دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص . تلك الشبهة هى الطبيعة ، إله العصر المزعوم .

حينما تبادر أحد الطبيعيين بالقول :

مَن خلق السموات والأرض ؟ يقول لك : الطبيعة .

مَن خلق النبات والحيوان ؟ يقول لك : الطبيعة .

مَن خلق الإنسان ؟ يقول لك : الطبيعة .

مَن يُدبِّر جميع هذه الأمور الفلكية ، والحيوية ، والغريزية ، وكل بحساب دقيق ونظام لا يحيد ؟ فسيقول لك : الطبيعة .

وهو يتذرع لك بهذا السبب لأنه لا يستطيع أن يقول لك : إنها تحدث بذاتها ، أو من تلقاء نفسها ، وينكر قانون السببية ، فهو أصاب حين أقرَّ بالسببية وأخطأ حين جهل المسبِّب ، وليس شأننا حين البحث فى هذا الأمر أن نكتفى بالتسفيه والتشنيع ، ولكننا نناقش الأمر من جميع الوجوه ، فما كان من حق أقررناه ، وما كان من باطل فنَّدناه ، والعاقل الذى يصيخ إلى المنطق ، والجاهل الذى يتبع هواه ، ويقيم على الباطل ولو تبين له الحق .

فما هى الطبيعة ؟ وما هى مفاهيمها ؟ وما هى حقيقة تأثيرها ؟

الطبيعة فى اللغة : السجية والخلق . غير أن للطبيعة اليوم فى عقول الناس - حسب تفاوتهم - مفهومين :

المفهوم الأول : أنها عبارة عن الأشياء بذاتها ، فالجماد والنبات والحيوان ، كل هذه الكائنات هى الطبيعة . وهو مفهوم غير دقيق ، وحكم غير سديد كما سيتبين لك .

المفهوم الثانى : أنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها ، فهذه الصفات : من حرارة وبرودة ، ورطوبة ويبوسة ، وملاسة وخشونة ، وهذه القابليات : من حركة وسكون ، ونمو واغتذاء ، وتزاوج وتوالد ، كل هذه الصفات والقابليات هى : الطبيعة .

وسواء أكان القول الأول أو القول الثانى هو المعبِّر عن الطبيعة بحق ، فما نصيب هذا القول من الحق ؟

أما القول الأول : فلا يخرج بالطبيعة - بالنسبة لخلق الوجود - عن تفسير الماء بالماء ، فالأرض خلقت الأرض ، والسماء خلقت السماء ، والأصناف صنَّفت نفسها ، والأشياء أوجدت ذاتها ، فهى الحادث والمُحدِث ، وهى المخلوق والخالق فى الوقت ذاته ، وبطلان هذا القول بيِّن ، فهو إما ادعاء بأن الشىء وُجِد بذاته عن غير سبب - وقد تبيَّن لك فساده بقانون السببية - وإما إدماج الخالق والمخلوق فى كائن واحد ، فالسبب عَيْن المسبب وهو مستحيل ، بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج إلى الوقوف والشرح .

وأما القول الثانى : وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها فى التكوين ، فنقول فيه : الحقيقة أن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص ، لا يعدون عن كونهم وصَّافين لتلك الظواهر ، لا يعرفون كُنْهها ، ولم يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها ، ولو فعلوا ذلك لوجدوا أن

القابلية التى اعتمدوا عليها فى خلق الشئ سراب خادع يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ولإيضاح ذلك بالطريق العلمى نضرب المثال التالى :

نضع حبة فى التراب ، ونسقيها بالماء فتنتفخ ، وتنفلق ، فيظهر منها الرشيم ، ويندفع منه الجِذْر إلى الأسفل ، والساق إلى الأعلى ، وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار ، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلاً .

فالقابلية التى كانت فى الحبة هى الانتفاخ ، والانفلاق ، وظهور الرشيم . . ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظواهر الحيوية ، ولما نشأت عنها الثمرة . فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها : لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شىء . فمَن الذى نفخها وفلقها ؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا : إن عقلها هو الذى هيأ لها ذلك ، ولو أن الماء هو الذى نفخها وفلقها ، لأمكن للماء أن ينفخ فى الحديد ويفلقه ، إذن فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر ، وإذا كانت الحبة بذاتها - جدلاً - انتفخت وانفلقت ، فلماذا لم تجمد وتضمر بدلاً من أن تنتفخ وتنمو ؟ ! ولكى يحصل التكاثر والبقاء ، يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك ، ومنهاج مرسوم من قِبَل تلك البذرة ، والبذرة لا تملك شيئاً من ذلك ! فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها ، بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة ، وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة فى صميم كل بذرة منها ؟

والحقيقة أن مَن أنعم النظر فى تعبير الطبيعيين المستندين إلى القابلية : **طُبِع** النبات على ذلك ، **انتفخت** الحبة ، **وانفلقت** ، **وتوالدت** الخلايا ، **تميل الخلية** الحية إلى الانقسام . . يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهول لجهل الفاعل الحقيقى ، فكأن الطبيعى أغمض العين عن السبب الحقيقى ، وبنى الفعل للمجهول تخلصاً . فمَن الذى نفخ الحبة ؟ ومَن الذى فلقها ؟ ومَن الذى أدّى إلى التوالد ؟ ومَن الذى جبل الخلية على الانقسام ؟ كل هذا

التحقيق لا تصل إليه نظرة الطبيعيين القصيرة بل المقتصرة على وصف الظواهر ، دون الذهاب إلى أسبابها ، بل المخطئة فى جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلاً ، والقابلية مؤثراً . والظاهرة المجهولة عاملاً مكوِّناً ، فالانتفاخ صفة ، نشأت عن المؤثر الخارج عن الشىء ، وعن قبول أثره فى ذلك الشىء ، والانفلاق صفة ، والامتداد صفة .

وما زاد الطبيعى على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوماً مركَّباً ، سمَّاه « قابلية التوالد والنمو » . فجعل من القابلية التى هى عَرَض من أعراض الشىء سبباً فى الخلق ، ومن الصفة الانفعالية التى لا تعى ولا تدرك ، سبباً فاعلاً واعياً فى تكوين الأشياء ! إذن فمَن الذى ركز الطبيعة فى العناصر ؟ ومَن الذى نوَّع تلك الطبائع ؟ إن بذرة الإجاص (الكمثرى) ، وبذرة المشمش ، حين توضعان فى التراب تنتج كل واحدة منهما ثمراً مختلفاً عن الآخر ، بلونه ، وطعمه ، ورائحته ، مع أنه يُسقَى بماء واحد ، ومع اتفاقنا على أنه ليس للبذرة عقل ، ولا لجِذْر الشجرة إدراك . فكيف كان الجِذْر يمتص الماء ، ويصطفى ذَرَّات بعينها ، وينضج النسغ ويسوقه إلى الثمر ، ويُكوِّن العصارة ، ويُنشىء الحلاوة ؟ ! كل ذلك يجعلنا نسأل عن السبب ، ولا نقف عند المجهول ، ولا نكتفى بوصف الظواهر ، بل لا نصف هذه الظواهر خطأ بأنها أسباب الخلق الحقيقية . ونحن نعلم أن القابلية ليست إلا صفة من صفات الشىء ، فكيف تخلقه ؟ وأن الحبة بالنسبة للنبات جماد لا يعقل ، فكيف تُنوِّعه ؟ وإذا لاحظت أننا مجبرون - بحكم هذه النظرة إلى طبائع الأشياء - أن نسأل عن حقيقة تلك الطبيعة ، وعمن طبع الأشياء عليها ، وكيف تؤثر ؟ وهل تُبدع أم تُصنِّف وتُركِّب ، وهل هى فاعلة بذاتها ، أم منفعلة لغيرها ؟ أدركتَ أن الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل كثيرة ، ومن الأصل الحاسم إلى الفروع التى لا تحسم الأمر ، فبينما كنا نسأل عن خالق الحبة وفالق النوى ، انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهلة إلى صفات انفعالية ليس لها من القُدرة على الخلق نصيب ، ولولا قصر النظر عند الطبيعيين على

هذه الأسباب الغريبة المحيرة دون مبرر ، لوجدنا الجواب شافياً منطقياً منسجماً مع ما تقدَّم من التحقيق العلمى فى الآية الكريمة التالية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (١) . وبذلك ترجع الأسباب كلها إلى الخالق الأول وتُعرف المجاهلين ، ويُحسم الأمر .

ولكى نزيد الأمر وضوحاً ، نضرب لذلك مثلاً : محرك السيارة ، فإن تحرك أجزاء المحرك ، واحتراق البنزين ، والقوة الدافعة فى محصول الانفجار ، كل تلك الخصائص قابليات وطبائع ، فهل نجد أن قابلية الاحتراق ، وخاصية الانفجار ، وقوانين الميكانيك ، هى التى خلقت المحرك وأبدعت السيارة ؟ لا شك أن القابلية غير ذات الشىء ، وأنها إن كانت سبباً فى اندفاع الظواهر ، وبروز المظاهر ، فهو فى حدود التركيب والتصنيف ، لا فى حدود الخلق والإبداع ، وهى فى المراحل الأخيرة ، لا فى المرحلة الأولى من خلق الوجود . ولذلك إذا أراد الطبيعى الخروج من هذا المأزق ، وأقرَّ معنا من أن هذه الطبائع أسباب فرعية فى مجال التكاثر والتنويع ، ولا يعدو فى حقيقتها نوعية تساند الأسباب التى تكلَّمنا عنها فى مبدأ السببية . قلنا له : رجعتَ إذن إلى الأصل الذى بحثنا عنه من قبل وأثبتناه ، ولم تستطع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعها ما يصح أن يكون سبباً لإخراج الوجود من العدم .

وإذا أردتَ أن تعرف العلَّة النفسية فى تكوين هذا الإله الزائف (الطبيعة) لدى بعض الناس ، وجدتها فى السلسلة التالية :

عاين الإنسان صفة الشىء ، فأضاف الصفات بعضها إلى بعض ، وكوَّن من مجموع الصفات مفهوماً ، وسمَّى المفهوم قابلية أو طبيعة ، ومالت النفس إلى الراحة والاختصار . فجعلت من تلك الطبيعة فى خيالها ذاتاً مستقلة فعَّالة .

---

(١) الأنعام : ٩٥

وجمد الخيال البَشرى على ذلك ، وتوهم صاحبه أنه وجد إله الوجود ، فأقبل عليه طائعاً ، وأسلم له خاضعاً ، من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن ، يصنعه ، ثم يتخيل أن له النفع والضر ، ثم يعبده !

وما أشد التشابه بين مَن كان يعبد الأصنام من قبل ويجادل عنها ، ومَن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها ، فالعِلَّة النفسية واحدة ، ونوعية الخطأ واحدة ، ألا وهى الاصطناع فى أول الأمر ، وتوهم الاستقلال والتأثير فى آخره ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخدعة فى آيات كريمة ، منها :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ من دُونِهِ إلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، فَانتَظِرُواْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ (٢) .

فانظر من أى ناحية ضلَّ البَشر من قبل ، ومن أى ناحية يضلُّون اليوم ، والقضية ليست إلا أسماء يسمونها فى البداية ، ثم يجادلون عنها كحقيقة واقعة فى النهاية .

وخلاصة القول فى الطبيعة : أنها إما قول بأن الأشياء حدثت بذاتها ، وهو قول ساقط من كل اعتبار .

وإما قول بأن الصفات تخلق الذات ، وهو أشد تداعياً وسقوطاً من القول الأول ، لأنه إذا عجزت ذات الشىء عن خلقه ، فكيف تستطيعه الصفات ؟

---

(١) يوسف : ٤٠ (٢) الأعراف : ٧٠ - ٧١

وإما اعتبار للقابلية على أنها سبب متأخر كبقية الأسباب ، فتفتقر إلى السبب الأول وهو الذى به نقول .

إذن ففى الأحوال الثلاثة لا بد من الرجوع إلى الخالق الأول ، وتأتى الطبيعة متأخرة منفعلة له مفتقرة إليه .

وهكذا نجد أن الطبيعة - إله العصر المزعوم - لم تثبت أمام النقد المنطقى والشرح العلمى ، وليست بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابلياتها وقوانينها التى تجرى عليها ، وأن طبائع الأشياء لا تخلقها ، ومَن كان يبحث عن ذات مستقلة لها ، مبدعة فعَّالة ، خارجة عن نطاق الأشياء ، كان لا شك باحثاً عن عنقاء المغرب .

* * *

التوحيـــــــد

إذا كان سراب الطبيعة قد تبدد أمام ناظريك ، وأصبح أُفق معرفة الخالق الأول واضحاً لديك ، أمكنك أن تستكمل معرفتك هذه بالتعرف إلى صفاته التى يُلزمك بها البحث ، مستنداً إلى الحقائق المتقدمة ، وصفاته التى تُستنتج من ذلك فنقول :

هو الأول : ليس قبله شىء ، لأن القول بشىء قبله يجعل له حدوداً ، والحدود من صفات الحوادث ، وقد فنَّدنا ذلك من قبل .

وهو الآخر : وليس بعده شىء ، للمحذور نفسه ، فهو إذن « الأزلى الأبدى » .

وهو الحى : الحياة المطلقة ، لأنه الواهب الحياة للأحياء ، ولا يصح إلا أن تكون مطلقة ، لأن النسبية من صفات الحوادث .

وهو السميع العليم ، البصير القدير : لأن هذه الصفة لوازم صفة الحياة ، ولما كان الإطلاق صفة لحياته ، كان الإطلاق ملازماً لجميع الصفات الأخرى ، بحيث لا يُعجز السمع أو البصر أو العلم أو القُدرة معجز .

وهو الواحد : الذى لا شريك له فى المُلْك ، ولما لهذه الصفة من أهمية عظيمة ، وخطورة بالغة ، نخصها بالتفصيل التالى :

لعلك أدركت من تسلسل البحث ، ومن ذكر الصفات المتقدمة ، ومن الجزم بكمال الله المطلق ، أن التوحيد حاصل ولا يحتاج إلى برهان ، بل أن التعدد هو الذى يفتقر إلى الدليل ، ولكننا على الرغم من ذلك ، نعرض لأمر التوحيد بالتفصيل لعلاقته الصميمة بواقع الحياة .

القول بالتعدد يمكننا أن نختصره **بالتثنية** ، فإن ثبتت التثنية ، صح التعدد من غير حصر ، وإن بطلت بطل التعدد أصلاً ، ولزم التوحيد .

فالقول بالتثنية يلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنين ، لأن التساوى التام من جميع الوجوه باطل ، ولا يصح بالتصور إلا إذا انطبق الأول على الثانى تمام الانطباق ، فيبقى فى النتيجة كائن واحد ، ولما انعدمت الصفة المميزة انعدم التمييز . فإن قال مكابر بامكان التمييز بين اثنين حال التساوى التام ، قلنا له : أقمت الحُجَّة على نفسك حينما ميَّزت ، وما ميَّزت إلا بإدراك صفة مميزة . ووجود صفة مميزة يبطل التساوى التام ، وإذا بطل التساوى التام ، حصل التفاضل بين الاثنين فسقط المفضول **وبقى واحد** .

والقول بالتثنية ، من الوجهة الرياضية يفيد وجود إطلاقين ، وذلك محال ، لأن وجود أحدهما ينافى إطلاق الآخر ، فهو إما أن يدخل فى إطلاق الأول ، فلا يبقى إلا **الأول** . وإما أن يخرج عن نطاق الأول ، فيسقط **إطلاق الأول** المفترض ، ويبقى **الثانى** ، أى أن الإطلاق محيط ، ولا يُحاط به ، والنتيجة : أنه لم يبق إلا **إطلاق واحد** .

وهذا كما أنه دليل على التوحيد ، فهو دليل على حدوث العالَم ونفى قِدَمه ، لأن القول بقدَمه يفيد وجود إطلاقين ، وذلك محال كما رأيت . ومن هنا نفهم المعنى العميق للآية الكريمة : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (١) أى : أنه ليس تصريف الكون وحده حادثاً فحسب ، بل الكون كله - خلقاً ، وتصريفاً - مقهور للخالق ، فهو حادث بمادته ومعناه .

وإذا أردنا أن نجلى معنى هذا البرهان بالنسبة للتوحيد والتعدد ، قلنا : حين وجود اثنين يترتب على أحدهما أن يحيط بالثانى قدرة وعلماً ، فإن عجز عن ذلك ، فهو ليس بإله ، **وبقى واحد** . وإن قدر على ذلك ، سقطت

(١) الأعراف : ٥٤

ألوهية الثانى **وبقى واحد** . وبعض الفلاسفة يسمى هذا بـ « برهان التمانع » ، فيقولون : لو كان هناك إلهان ، يريد أحدهما قيام زيد فى آن ، ويريد الآخر قعوده فى ذلك الآن ، فمحال نفوذ الإرادتين ، لاستحالة المراد ، وجمع الأضداد ، فإن غلبت إرادة أحدهما على الآخر ، فهذا عاجز مقهور ، فليس بإله ، **وبقى واحد** .

وقد أورد ذلك ابن جرير الطبرى ، قال : « لم يخل كل واحد من الاثنين من أن يكونا : قويين ، أو عاجزين ، فإن كانا عاجزين ، فالعاجز مقهور ، وغير كائن إلَهاً ، وإن كانا قويين ، فإن كل واحد منهما يعجزه عن صاحبه عاجز ، والعاجز لا يكون إلهاً . فإن كان كل واحد منهما قوياً على صاحبه . فهو بقوة صاحبه عليه عاجز » .

إذن لم يبق إلا **الواحد المطلق** الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وما قال مَن قال بالتعدد إلا عن عقلية بدائية ، وفكرة وثنية ، وتصور خيالى مصطنع ، بعيد عن التحقيق ، مصادم للعقل .

ولم يبق فى الدنيا مَن يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعدد . بل إن التحقيق لا يرشد إلا إلى التوحيد ، بريئاً من صفات الحوادث ، كالإلصاق والتفريع والولادة . فكما أن التعدد باطل ، فطروءه من بعد أشد بطلانا وأقبح ، وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره كالتثنية والتثليث وغيرهما ، على الرغم من إقامة كثير من البَشر اليوم على هذه العقيدة الفاسدة بكل أسف ، ولو رجعوا قليلاً إلى العقل والمنطق لانهدمت أمامهم هياكل الوثنية وأساطير التعدد لقوة البرهان ، وصراحة الحُجَّة ، وثورة العقل على هذا التناقض المشين ، فليت شِعرى ، متى يثور مفكرو العالَم الأحرار وعقلاؤه المتجردون على هذه الوثنية النكراء ، فيمزقوا غشاء العنكبوت ، ويقودوا العالَم إلى التوحيد ؟ !

والقرآن الكريم هو الذى حمل لواء التوحيد للناس ، ونص على ما تقدَّم

من تفنيد التعدد وبطلانه ، وتأكيد التوحيد وثبوته ، فى آيات كثيرة حملت أنصع بيان وأقوى برهان ، منهما :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) ، ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) ، ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (٤) ، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٥)

وهكذا تثبت حقيقة التوحيد للخالق القديم بما لا يدع مجالاً للريب والتردد .

والأحرى بالعالِم المحقق ، أن يدعو الناس إلى ذلك ، ويفند لديهم نِحْلة التعدد ، ويفضح زيفها وبطلانها ، لكى يخرجوا من الظلمات إلى النور ، ومن التنافض المشين إلى الانسجام المنطقى المبين . وبذلك تخرج النفس البَشرية مما تعانيه من الحيرة والتردد ، والكبت والقلق ، والجنوح بالنتيجة إلى السُبُل الشاذة ، والمناهج السخيفة ، المضحكة المبكية ، والتى يثبت التحليل النفسى أنها ليست إلا صورة حسية تعبر عن إفلاس البَشر فى التماس طريق الحق .

واستكمالاً لكل جوانب الإقناع فى هذه المسألة - مسألة الطبيعة ، والسببية ، والتوحيد - ننقل هذه الرسالة الجيدة لبديع الزمان سعيد النورسى رحمه الله :

---

(١) الأنبياء : ٢٢ (٢) المؤمنون : ٩١ - ٩٢ (٣) الحديد : ٣
(٤) فصلت : ٥٤ (٥) سورة الاخلاص كاملة .

« ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [1] .

« تأمل فى هذه الآية وما فيها من الاستفهام الإنكارى ، إنها تدل على أن الحكم بوجود الله ووحدانيته ، من أوضح البدائه لكل مَن أبصر بعينه مرة هذه السموات والأرض ، غير أنه بالرغم من ذلك ، فإن فيما يلفظ به بعض المسلمين اليوم كلمات ، أقل ما فيها أنها تومىء إلى الكفر بهذه الحقيقة الكبرى .

« وسأتناول منها بالبحث ثلاث كلمات لا يرددها فى الغالب إلا أحمق ذاهل عن حقائق الأمور ، وملحد جعل من برذعة إلحاده حُلَّة يفاخر ويتباهى بها ، إحداها : « **أوجدته الأسباب** » ، والثانية : « **تشكَّل بنفسه** » ، والثالثة : « **اقتضته الطبيعة** » .

« إن محالات كثيرة تنبع من الأخذ بمبدأ هذه الكلمات الثلاث القذرة ، ولو ذهبت أعدها بتفصيل علمى موسع ، لتجاوزت تسعين محالاً من المحالات التى لا يشك فيها علم عالِم ولا عقل عاقل ، ولكنى سأكتفى من بيان ذلك كله بالعُشر فقط أذكره فى عبارات موجزه سريعة .

« إن **المحال الأول** : الناتج عن كلمة « **أوجدته الأسباب** » ، يظهر جلياً فى هذا المثال : وقع احتياج إلى معجون مستحضر من بضعة عقاقير وحشائش مختلفة الأنواع والمقادير ، وقام الصيدلى بتحضير هذا المعجون طبق موازين دقيقة ، بحيث لو أن بعض الأجزاء طغى على الحد المطلوب أو قلَّ عنه ، لأدَّى ذلك إلى عكس الفائدة المرجوة منه .

فلو أن زلزالاً مثلاً وقع بين تلك القوارير التى استحضر منها الدواء ، فتكسرت وسال ما فيها ، وجرى بعضه إلى بعض ، فاختلطت الأجزاء المتنوعة ، وتلاقت إلى بعضها ، فهل يمكن أن يكون المحصول المركَّب من

---

(1) إبراهيم : ١٠

ذلك الخليط مساوياً لذلك الخليط الذى استحضره الصيدلى بميزانه الدقيق وخبرته العلمية وحسابه المنظم ؟ وهل يقبل مثل هذه الدعوى سوى مَن فاتته نعمة التفكير والعقل ؟ !

« إن كل ذى حياة على هذه الأرض ما هو إلا معجون رائع ، رُكِّب من ملايين الأجزاء العجيبة المختلفة ، أُخذت بمقدار وضُمَّت إلى بعضها بحكمة ونظام . . فلا ريب أن إسناد هذا الشكل إلى عمل الأسباب المادية الجامدة والعناصر الميتة الصامتة ، أشنع وأقبح من الإسناد فى ذلك المعجون الذى حصل من تصادم القوارير وسيلان ما فيها .

« **المحال الثانى** : إن إسناد خلق الأشياء إلى أسبابها المادية ، يستلزم أن يكون للكثير من العناصر والأسباب الدقيقة المتناقضة تأثير مباشر فى وجود الأشياء . والحال أن تلاقى الأسباب المختلفة المتباينة إلى بعضها ، باتفاق من جهة ، ودقة موزونة من جهة أخرى ، فى خلق البعوض مثلاً إن لم يكن من أجلى المحالات . فهو من أشد الممتنعات ، لأن جسم ذلك البعوض مع صغره ذو علاقة بأكثر العناصر والأسباب المادية المبثوثة فى الكون ، بل إنه بحق خَلاصة وزُبْدة لها ، فلو سلَّمنا ادعاء استناد هذا الموجود الصغير إلى تلك الأسباب ، للزم أن تحتشد جميع العناصر والأسباب كلها بالذات عند إيجادها ، بل يجب توفرها كاملة فى جسمها ، بل فى حجيرة من حجيرات جسمها ، لأن السبب المادى ينبغى أن يكون موجوداً مع المسبب داخلاً فيه ، أى فينبغى أن تكون هذه العناصر المادية المتناقضة كلها مجتمعة على الدوام ، تعمل عملها فى كل حجيرة من حجيرات جسم البعوض ، دون مَن يدفعها إلى هذا التلاقى والتفاعل .

« وهل هذا إلا وهم يستحى بلهاء السوفسطائيين من الهذيان به .

« **المحال الثالث** : إن القاعدة البديهية تقول : « إن الواحد لا يصدر إلا عن الواحد » أى كل ما يتصف بوحدة النظام والتنسيق والانسجام فى مظهره

وشكله ، فلا بد أن يكون المؤثر فيه واحداً ، ضرورة أن التأليف بين المتنافرات ، والجمع بين المختلفات فى وحدة نوعية أو جنسية ، لا يمكن أن يتم إذا ما اجتمعت عليه أكثر من إرادة ويد واحدة . ولا ريب أن هذا العالَم العظيم تجمعه كله وحدة الانسجام والتنظيم ، فإسناد وجوده بعد ذلك إلى الأسباب الجامدة المختلطة ، التى لا شعور لها ولا عقل ، من أعظم الخرافات المضحكة . هذا إلى أن الأسباب المادية لا يمكن تأثيرها إلا بواسطة التماس والمباشرة ، وغير خاف أن تجانسها إنما يكون بسطح الموجودات وظاهرها ، مع أن فى بواطنها ووراء حدود المُحَس منها من الانتظام والغرابة والانسجام ما ليس فى ظواهرها ، فإن أسبابها المادية الـمُوجِدة لها ؟ بل أين مَن يستطيع أن يُفرِّق فى غوص ذلك الباطن ، بين السبب المؤثر والسبب المتأثر ، يفصلهما ، ويُفرِّق بينهما فى الزمن والجوهر والحدود » ؟

❊

« أما الكلمة الثانية « **تشكَّل بنفسه** » : فهى أيضاً تنطوى على محالات لا تعمى عنها الأبصار . غير أن المفكِّر المعاند من شأنه أن يبلغ به الكبر مبلغاً يلبسه برذعة الحمق . إن الإنسان العادى من شأنه أن لا يخضع لمحال واحد يتراءى لعقله ، ولكن مثل هؤلاء المعاندين لا يبالى أن يدافع عن حشد من المحالات ، النابعة عن الباطل الذى أقسم أن لا يتخلى عنه . إنك أيها الإنسان لست مادة بسيطة جامدة ملقاة على سطح هذا الوجود ، إنما أنت جهاز معمل دقيق كبير ، بلغ فى دقته غاية الروعة والانسجام . . إن فى جسمك ذَرَّات عاملة ساعية على الدوام . . إن لجسمك تفاعلاً - فى غاية الانتظام - مع سائر مظاهر الوجود من حولك ، إنها أشبه ما يكون بتفاعل البيع والشراء والأخذ والإعطاء . . إن ملايين الذَرَّات العاملة فى جسدك تظل ساهرة على حفظ سير هذا التفاعل ودقة انتظامه ، وهكذا تعلم أن الانسجام ليس بين ذَرَّات جسمك وحده ، بل بين مجموع هذه الذَرَّات والوجود الخارجى من حوله ، إن هذا يعنى أن ثمة وحدة انتظام سارية بأتم دقة بين وجودك العضوى ووجود سائر الكائنات من حولك !

« فإذا رفضت أن توقن بأن الذَرَّات الساعية فى جسدك ، إنما تتحرك فيه طبق قانون الخالق الأزلى العظيم ، لزمك أن تقول إن للذَرَّات التى تتفاعل فى حجيرة واحدة من حجيرات عينك مثلاً عقلاً متفلسفاً هائلاً ، وضع به قانون الانسجام والتطابق بين كل ذَرَّة من جسدك من جهة ، وذَرَّة من ذَرَّات الوجود من حولك من جهة أخرى ، سواء أكان ذلك الوجود هواءً أو ضياءً أو طعاماً أو شراباً أو أى شىء آخر ، كما ينبغى أن يكون لكل ذَرَّة من هذه الذَرَّات فكر ، يدرك منابع دهرك ، وعناصر آبائك وأجدادك ، ويتصور ماضيك ومستقبلك . . . يا لخرافة العناد المتكبر !

« أما إذا كان جوابك عن عالَم الذَرَّة ونظامها نفس جوابك عن عالَمك الحسِّى هذا . أى أن له أيضاً أسبابه المادية وتفاعله الذاتى ، فإن السؤال سيلاحقك عن العالَم الثالث الذى من ورائهما ، والذى هو أدق من كليهما . وهكذا تتسلسل العوامل والأسباب إلى غير نهاية ، وتمتد إلى حيث يضل وراءها عناد المعاندين وجحود المتكبرين » .

*

« الكلمة الثالثة « **اقتضته الطبيعة** » : ويتفرَّع عنها سلسلة من مظاهر التهافت المضحك ، نجمل بعضها فيما يلى :

« ١ - إن صاحب هذا القول ينبغى أن يلتزم أن كل ذَرَّة من ذَرَّات الوجود تنطوى على مجموعة العوامل والمؤثرات التى أبدعت هذه المجموعة الكونية ، وأنها تشتمل على القُدرة والطاقة الكافية لإبداع عالَم كامل كالذى نراه من حولنا ، وما على هذه القُدرة إلا أن تنفذ ذلك وتعمل عملها .

« إذ ما دام فى كل ذَرَّة من ذَرَّات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة ، المدبرة الحكيمة ، منفصلة عن غيرها ، غير مرتبطة بقيادة عامة لها ولأمثالها ، فلا مناص من التزام هذه النظرية . . تماماً كالذى يرى شعاع الشمس تسطع من قطرات المياه ، وقطع الزجاج والأجرام الشفافة ، ويأبى ألا أن يزعم أن فى كل جُرم من هذه الأجرام « طبيعته » الشعاعية المستقلة بذاتها . فلا ريب أنه

ينبغي أن يلتزم ويعترف بوجود شمس حقيقية مستقلة ضمن كل جُرم من هذه الأجرام المضيئة على حدة .

« ومَن أراد أن يضحك من خرافة هذه النتيجة ، فليضحك قبل ذلك من خرافة المقدمة التي راح يزعمها ويتبناها .

« ٢ - إن على صاحب هذا القول أن يلتزم بأن شِبراً واحداً من أي أرض معينة ، تنطوي على ما لا تنطوي عليه دول العالَم كله من المصانع والمطابع والمواد الأولّية المختلفة ، ذلك أن قدحاً واحداً من التراب الذي لا تزيد مساحته على شِبر ، يمكن أن تُستنبت فيه معظم أنواع النباتات وأزهار العالَم ، على سبيل التناوب . . فلو لم تكن قدرة الخالق العظيم هي التي تقذف في تلك الأرض قدرة التفاعل ، مع ما تستقبله من مختلف النباتات والبذور ، لتعطي كُلّاً منها ذاته وشكله وخصائصه ، إذن لكان لا بد أن توجد في تلك التربة عناصر وقابليات متناقضة ، بل ينبغي - كما قلت - أن تكون طاقة الصناعات الأوروبية كلها محشورة في ذلك الشِبر من الأرض ، إذ من المعلوم أن مواد النطف والبذور واحدة لا تختلف ، وهي عبارة عن مزيج : مواد الماء ، ومواد الحموضة ، والكربون ، والآزوت . . ومواد الماء ، والهواء ، والحرارة ، والضياء ، هي الأخرى بسيطة لا تختلف في جريانها حول نبت وآخر .

« ومع ذلك ، فإن هذه النباتات تنبثق فوق ذلك الشِبر من الأرض ، كل واحد يحمل صفاتها وخصائصها ولونها ورائحتها ، فلا بد أن يوجد في ذلك التراب شيء آخر غير المواد المعروفة للتراب والبذر والهواء ، يحد هذه البذور بخصائص التشكل والتميز . فانظر وتأمل في مدى بُعْد هذا الكلام من الفكر والعقل !

« ٣ - أذكر هنا مثالاً كنت كتبته في بعض الرسائل الأخرى ، يوضح حالة المنتسبين إلى الطبيعة . . لنفرض أن في قلب بعض الصحاري بناءً رائعاً ، مشيداً على أحسن طراز وأدق هندسة . . وصادف أن دخل هذا الصرح بدوي

متوحش ، لم يسبق أن رأى فى حياته غير صروح الخيام ، فتأمل فى براعته ونقوشه ومظاهر إتقانه ، ثم حدَّث نفسه أن ليس فى هذه الصحراء كلها مَن يقدر أن يُبدع مثل هذا الإبداع فلا بد أن البانى يجثم فى جوف البناء نفسه ، ثم راح ينظر ويفتش عنه فى الغرف من حوله ، فلم ير أحداً ، ولكنه عثر على أوراق ، فيها : خارطة البناء ، ومواده ، وتفاصيل هندسته ، ففكَّر قليلاً أن هذه الأوراق لا يد لها ولا بصر ، فليس من شأنها أن تشيد بناءً . . ولكنه ما لبث أن عاد فتعلق بها قائلاً : ولكن ها هى ذى تبحث عن قوانين تشييده وكيفية تأليفه ، إذن فليس ثمة غيرها المُشيِّد والبانى .

« فكذلك يدخل بدوى متوحش لم يهضم عقله إلا اسم الطبيعة إلى صرح هذا الكون العظيم ، فيدهشه أنه يرى إبداعاً لا يجد من حوله - بسبب عقله القاصر - مَن أبدعه ، ويتأمل فى ثناياه وأطرافه ، فيعثر على اللوح الذى سُجِّلت فيه قوانين الفطرة الإلٰهية وقواعد صنعته الإبداعية - المسماة خطأً بالطبيعة - فينبهر لها ، ويحدِّث نفسه - وهو فى غيبوبة عقلية تامة - أن لا بد أن هذا اللوح بقوانينه هو الذى أبدع هذا الإبداع ، وصنع هذا الصنع .

« ونحن نقول : أيها السكران **الأحمق** ، ارفع رأسك عن بئر الطبيعة ، وانظر وراءك إلى صانع الكون . إن ذلك الذى بنى هذا الصرح ، ووضع أمام عينيك فى جنباته ، قانون تشييده ، ودستور إيجاده ، إنما هو الخلاق الأزلى إلٰه العالَمين جَلَّ جلاله ، لا الطبيعة التى أنت أجحد منها وأجهل .

« إن الطبيعة صنعة لا صانع ، نقش لا ناقش ، حكم لا حاكم ، شريعة لا شارع ، مخلوق لا خالق ، منفعل لا فاعل ، مصدرة لا مصدر » .

* * *

دلالات الظـــــواهر على الله وأسمائه الحُسْنَىٰ

هناك قاعدة تقول : « إن الآثار تدل على الأسماء ، والأسماء تدل على الصفات ، والصفات تدل على الذات » ولنضرب على هذه القاعدة مثلاً يوضحها : لو أخذنا كتاباً ودرسناه ، فإننا بواسطة دراستنا للكتاب ، نستطيع أن نتعرف على كثير من صفات صاحبه ، وبالتالى نتعرف عليه تعرفاً ما ، فإذا كان فى الكتاب أدب ، حكمنا على صاحبه أنه أديب ، وإذا كان مبتكراً ، حكمنا أن صاحبة مبدع ، وإذا كان لا يخرج على قواعد النحو حكمنا بأنه نحوى ، وإذا كان بليغاً ، حكمنا على صاحبه بأنه بليغ ، وإذا كان فيه إحاطة فى موضوعه ، قلنا عن صاحبه بأنه محيط ، وإذا كان فيه دقة فى العرض وجمال ، حكمنا على صاحبه بأنه ذوَّاقة ودقيق ، وإذا كان الكتاب مرتباً منظماً منسجماً متسلسل الأفكار ، حكمنا على صاحبه بأنه ناضج ، وإذا كان فى الكتاب علم كثير ، حكمنا على صاحبه بأنه عليم ، وهكذا . . فكل ظاهرة فى الكتاب ، تدلنا على صفة من صفات صاحبه ، نسمى صاحبها بسببها اسماً مشتقاً منها ، له علاقة بها ، وبالتالى نكون قد عرفنا صاحب الكتاب نوع معرفة .

ولنطبق القاعدة الآنفة الذكر على بحثنا .

فقد استعرضنا فى الصفحات الماضية تسع ظواهر كونية ، كل ظاهرة من هذه الظواهر تدل على اسم من أسماء الله أو أكثر ، فالكون من آثار الله ، ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ ﴾ [1] وآثار الله تدل على أسمائه ، وأسماؤه تدلنا على صفاته ، وصفاته تدلنا على ذاته .

---

(١) الروم : ٥٠

فظاهرة القِدَم وحدوث العالَم تدل على اسم الله : « الأول والخالق » ، وظاهرة الحياة تدل على اسم الله : « المحيى والبارىء والمميت » ، وظاهرة الهداية تدل على اسمى الله : « الهادى والمضل » ، وظاهرة الإبداع تدل على اسم الله : « البديع » ، وظاهرة الإجابة تدل على اسم الله : « المجيب » ، وظاهرة النعمة تدل على اسم الله : « المنعم المعطى » ، وظاهرة الوحدة تدل على اسم الله : « الواحد » ، وظاهرة الحكمة تدل على اسم الله : « الحكيم » .

وعلى هذا . . فكل ظاهرة فى الكون ذكرناها أو لم نذكرها ، تدل على اسم من أسماء الله تعالى . فظاهرة رزق كل مخلوق تدل على اسم الله : « الرزاق » ، وظاهرة الإعزاز والإذلال تدلان على اسم الله : « المعز والمذل » ، وظاهرة ثبات القوانين فى الكون تدل على اسم الله : « المهيمن » ، وظاهرة وجود المخلوقات تدل على اسمى الله : « القادر والمقتدر » ، وظاهرة ترتيب الأشياء بعضها وراء بعض تدل على اسمى الله : « المقدِّم والمؤخِّر » ، وظاهرة الندم تدل على اسم الله : « التوَّاب والغفَّار والعفو » ، وظاهرة الانتقام تدل على اسم الله : « المنتقم » ، وظاهرة النفع والضرر تدل على اسم الله : « النافع والضار » ، وظاهرة إمهال المخالفين عن أمر الله تدل على اسم الله : « الصبور » ، وهكذا فما من ظاهرة إلا وتدل على صفة لله واسم .

غير أن دلالة الظواهر على الأسماء والصفات ، تختلف باختلاف المتعلق ، واختلاف الارتباط :

فمنها ما يدل على صفات الفعل .

ومنها ما يدل على صفات الذات الوجودية .

ومنها ما يدل على صفات الذات السلبية ، وكلها تدل على موجود .

ولتوضيح الفروق بين هذه الصفات ، نقول : لو قلنا عن إنسان بأنه قاتل ، فتلك صفة فعل من أفعاله ، ولو قلنا إنه سميع ، فتلك صفة وجودية له ،

ولو قلنا إنه لا يشرب الخمر ، فتلك صفة سلبية له ، ولكن الأنواع الثلاثة من الصفات ، تدل على وجود إنسانى معيَّن .

والحقيقة أننا نعرف الصفات الوجودية بصفات الفعل ، والصفات السلبية بصفات الفعل ، ونعرف الذات بكل الصفات .

وقبل أن نطبق ما قلناه على قضية التعرف على الله ، نحب أن نذكر ماذا نعنى بكلامنا : صفات وجودية ، أو صفات فعل ، أو صفات سلبية .

المراد بالصفة السلبية بالنسبة للذات الإلٰهية : الصفات التى تدل على سلب ما لا يليق به سبحانه وتعالى ، كالوحدانية .

والمراد بالصفات الوجودية بالنسبة للذات الإلٰهية : الصفات التى تدل على معنى زائد على الذات ، كالعلم والسمع .

والمراد بصفات الفعل : تعلقات القدرة بالممكنات ، فكل تعلق لقدرة الذات الإلٰهية بممكن ، يدل على اسم وصفة وفعل .

وهذه كلها تدل على وجود الذات ، وصفة الوجود للذات الإلٰهية تسمى صفة نفسية ، لأنها تدل على نفس الذات دون معنى زائد عليها ، وإذن فما دلَّ على الذات دون معنى زائد ، نسميه صفة نفسية ، وما دلَّ على صفة مدلولها وجودى دون معنى زائد ، نسميه صفة وجودية ، وما دلَّ على صفة مدلولها عدمى ، نسميه صفة سلبية ، وليس كلامنا هنا يعنى نفى الصفات السمعية ، فللحديث عن الصفات السمعية محله . وإنما نقصد هنا الصفات العليا التى يدلنا عليها مجرد العقل السليم ، بدراسة سليمة للكون ، ونص الكتاب والسُّنَّة هو الهادى ، وتوافق العقل معه دليل سلامة العقل .

فكل الظواهر التى نراها فى هذا الكون ، تدل على أربع صفات وجودية : العلم - والإرادة - والقدرة - والحياة .

فلولا القُدرة ما كان هذا الكون ، ولولا تخصيص الإرادة الأشياء على ما هى

عليه ما كان هذا الكون ، ولولا العلم ما كان شىء ، فأى جزء من أجزاء العالَم يدل على علم سبق ، وإرادة خصصت ، وقدرة أبرزت . ومن لوازم اتصاف ذات بالعلم والإرادة والقدرة ، أن يكون لها حياة .

والظواهر كلها تشير إلى أن هذه الذات المتصفة بالعلم والإرادة والقدرة والحياة ، والتى خلقت هذا الكون ، متصفة كذلك بالقدَم فلا أول لها ، والبقاء فلا نهاية لها ، والوحدانية فلا ند لها ، ومخالفتها المخلوقات فلا يشبهها شىء من خلقها ، وقيامها بنفسها فلا تحتاج إلى موجد أو مخصص .

والظواهر كلها تشير إلى أن هذه الذات كاملة منزَّهة عن كل نقص ، ومن النقص العمى فهى بصيرة ، ومن النقص الصمم فهى سميعة ، ومن النقص البكم فهى متكلمة .

والظواهر كلها تشير إلى موجود متصف بهذه الصفات .

موجود لا بداية له فهو الأول ، ولا نهاية له فهو الآخر ، ولا ند له فهو الواحد ، ولا مشابه له فهو القدوس ، ولا حاجة به لأحد فهو القيوم .

موجود متصف بالقدرة فهو قادر ، وبالحياة فهو حى ، وبالسمع فهو سميع ، وبالبصر فهو بصير ، وبالكلام فهو متكلم ، وبالعلم فهو عليم ، وبالإرادة فهو مريد .

ومقتضى كثرة أفعال الله التى هى أثر عن العلم والإرادة والقدرة ، أن يكون لله أسماء كثيرة ، ولكن الأدب مع الله ألا نسمى الله إلا بما سمى به ذاته ، على لسان الوحى الثابت بالدليل القاطع ، لأنه – جَلَّ جلاله – لا يعرف جلاله إلا هو . وحتى لا ننسب إلى الله إلا ما يليق بذاته : « الخير بيديك والشر لا يُنسب إليك » ، فلا نسميه إلا بما سمى به نفسه ، ومجموع ما سمَّى به ذاته يُطلق عليه اسم : « الأسماء الحَسنىٰ » : ﴿ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [1] ، ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا

(١) طه : ٨

فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (١) ، ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ﴾ (٢) . وما من اسم من هذه الأسماء الحُسْنَى الواردة فى الكتاب والسُّنَّة ، إلا وفى الكون ظاهرة تدل عليه .

وهذه الأسماء كما وردت فى الكتاب والسُّنَّة تُعبِّر عن صفات سلبية أحياناً ، وعن صفات وجودية أحياناً ، وعن صفات كمال أحياناً ، وعن صفات فعل أحياناً ، فهى قد جمعت أُمهات هذه الصفات كلها .

والأسماء الواردة فى الكتاب والسُّنَّة لله تعالى كثيرة ، ومع هذا فهى ليست كل أسماء الله . فقد ورد فى الحديث : « اللَّهم إنى أسألك بكل اسم هو لك ، سميتَ به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرتَ به فى علوم الغيب عندك » .

ومن هنا نعلم أن ما ذُكِر ليس هو كل الأسماء الحُسْنَىٰ ، فإن جلال الله لا يتناهى ، ولكن ما ذُكِر ، تدلنا عليه ظواهر الكون بشكل صريح أو ضمنى ، فإذا اجتمعت دلالة العقل مع دلالة النص واتفقا ، فذلك برهان سلامة العقل والنص ، على أنه فى معرض الحديث عن الأسماء والصفات ، ينبغى أن نلاحظ هاتين النقطتين اللتينَ أشار إليهما الأستاذ البنا رحمه الله :

يقول الأستاذ البنا تحت عنوان « بين صفات الله وصفات الخلق » :

« والذى يجب أن يتفطن له المؤمن ، أن المعنى الذى يُقصَد باللفظ فى صفات الله تبارك وتعالى ، يختلف اختلافاً كلياً عن المعنى الذى يُقصد بهذا اللفظ عينه فى صفات المخلوقين ، فأنت تقول : الله عالِم والعلم صفة لله تعالى ، وتقول : فلان عالِم والعلم صفة لفلان من الناس ، فهل ما يُقصد بلفظة العلم فى التركيبين واحد ؟ حاشا أن يكون كذلك ، وإنما علم الله تبارك وتعالى

---

(١) الإسراء : ١١٠ (٢) الأعراف : ١٨٠

علم لا يتناهى كماله ، ولا يُعَد علم المخلوقين شيئاً إلى جانبه . وكذلك الحياة ، وكذلك السمع ، وكذلك البصر ، وكذلك الكلام ، وكذلك القدرة والإرادة ، فهذه كلها مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها فى حق الخلق ، من حيث الكمال والكيفية اختلافاً كلياً ، لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحداً من خلقه ، فتفطَّن لهذا المعنى فإنه دقيق ، ولستَ مطالَباً بمعرفة كُنْهها ، وإنما حسبك أن تعلم آثارها فى الكون ، ولوازمها فى حقك ، والله نسأل العصمة من الزلل وحُسن التوفيق » .

وكذلك يقول الأستاذ تحت عنوان « التفكر فى ذات الله » :

« عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن قوماً تفكَّروا فى الله عَزَّ وجَلَّ ، فقال النبى ﷺ : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تتفكروا فى الله ، فإنكم لن تقدروا قدره » . . قال العراقى : رواه أبو نعيم فى الحلية بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه ، ورواه أبو الشيخ كذلك ، وهو على كل حال صحيح المعنى .

« وليس ذلك حَجْراً على حرية الفكر ، ولا جموداً فى البحث ، ولا تضييقاً على العقل ، ولكنه عصمة له من التردى فى مهاوى الضلالة ، وإبعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها ، ولا تحتمل قوته مهما عظمت علاجها ، وهذه هى طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره .

« فاحصر همتك فى إدراك عظمة ربك ، بالتفكير فى مخلوقاته ، والتمسك بلوازم صفاته » .

* *

ونحب أن نذكر فى هذه الفقرة – عن القرآن والسُّنَّة ، على اعتبار أنهما المصدران الوحيدان للمعرفة ، عن طريق الوحى الصادق الذى يقوم عليه

الدليل الكامل ، كما سنرى إن شاء الله فى البحث الثانى - مجمل صفات الله كما وردت فى القرآن ، وبعضاً من أسمائه الحُسْنَى كما وردت فى الكتاب والسُّنَّة ، لنرى أن ما دلَّتنا عليه الظواهر بالعقل ، دلَّنا عليه الكتاب والسُّنَّة بالوحى عن طريق النقل .

يقول الأستاذ البنا تحت فصل « مجمل صفات الله فى القرآن » :

« أشارت آيات القرآن الكريم إلى بعض الصفات الواجبة لله تعالى ، والتى يقتضيها كمال الألوهية ، وإليك بعض هذه الآيات الكريمة :

١ - وجود الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمّىً ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً ، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [٢] . . فكل هذه الآيات تنبئك بوجود الله تبارك وتعالى ، وتستدل عليه بما ترى من تصرفاته فى شئون هذا الكون العجيب .

*

---

(١) الرعد : ٢ - ٤

(٢) المؤمنون : ٧٨ - ٨٠

٢ ، ٣ – قدَم الله تعالى وبقاؤه :

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (٣) . . وفى هذه الآيات الكريمة إشارة إلى صفتى القِدَم والبقاء لله تبارك وتعالى .

*

٤ – مخالفة الله للحوادث :

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ * ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٥) . . وفى ذلك إشارة إلى مخالفته تبارك وتعالى للحوادث من خلقه ، وتنزهه عن الولد والوالد والشبيه والنظير .

*

٥ – قيام الله تعالى بنفسه :

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ (٧) ، ونضيف : قال

---

(١) الحديد : ٣ — (٢) القصص : ٨٨ — (٣) الرحمن : ٢٦ – ٢٧

(٤) سورة الاخلاص . — (٥) الشورى : ١١ — (٦) فاطر : ١٥

(٧) الكهف : ٥١

تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ (١) ، ﴿ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٢) .. وفى ذلك إشارة إلى قيامه تعالى بنفسه واستغنائه عن خلقه ، مع حاجتهم إليه .

*

٦ – وحدانية الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُون * وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ، أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

---

(١) فاطر : ٤١ (٢) البقرة : ٢٥٥ (٣) النحل : ٥١ – ٥٣

(٤) المائدة : ٧٣ – ٧٤ (٥) الأنبياء : ٢١ – ٢٥

يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

إلى غير ذلك من الآيات التى تثبت أنه تعالى واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله وتصرفاته ، لا ربَّ غيره ، ولا إلَه سواه .

*

٧ - قُدْرة الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ

---

(١) المؤمنون : ٨٤ - ٩٢ (٢) النمل : ٥٩ - ٦٤

لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ، وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً * وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ * وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ، فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عظيم قدرته تبارك وتعالى ، وباهر عظمته .

*

---

(١) الحج : ٥ – ٧ (٢) الكهف : ٥١ (٣) سورة ق : ٣٨
(٤) الفرقان : ٥٣ – ٥٤ (٥) النور : ٤٣ – ٤٥

٨ – إرادة الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (٢) ، وقال تعالى حكاية عن الخضر فى قصته مع موسى عليهما السلام : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ، ذَلكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْه صَبْراً ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (٤) .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشير إلى إثبات إرادة الله تعالى ، وأنها فوق كل إرادة ومشيئة : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

*

٩ – علم الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٧) . وقال تعالى حكاية عن لقمان فى وصيته

---

(١) يس : ٨٢ (٢) الإسراء : ١٦ (٣) الكهف : ٨٢
(٤) النساء : ٢٦ – ٢٨ (٥) التكوير : ٢٩ (٦) سبأ : ١ – ٢
(٧) التغابن : ٤

لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى فى حكاية ما وقع بين شعيب وقومه : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا * ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على سعة علمه تبارك وتعالى ، وإحاطته بكل شئ ، قلَّ أو كثر ، دقَّ أو عظم .

*

١٠ – حياة الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ * اللهُ لَا

---

(١) لقمان : ١٦ (٢) الاعراف : ٨٨ – ٨٩ (٣) المجادلة : ٧

(٤) يونس : ٦١ (٥) البقرة : ٢٥٥

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * من قَبْلُ هُدىً لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ اللهُ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَىُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ،الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢)

. . . إلى غير ذلك من آيات كثيرة ، تدل على أن الله - تبارك وتعالى - متصف بالحياة الكاملة ، التى ليس ثَمَّ أكمل منها .

*

١١ ، ١٢ - سمع الله وبصره :

يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتى تُجَادِلُكَ فى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى الله وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذى يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ ﴾ (٤) .

وقال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفى الصُّدُورُ * وَاللهُ يَقْضى بِالْحَقِّ ، وَالَّذينَ يَدْعُونَ من دُونه لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٦) . . . إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على اتصافه - تبارك وتعالى - بالسمع والبصر .

*

---

(١) آل عمران : ١ - ٤ (٢) غافر : ٦٤ - ٦٥ (٣) المجادلة : ١
(٤) العلق : ٩ - ١٤ (٥) طه : ٤٣ - ٤٦ (٦) غافر : ١٩ - ٢٠

١٣ - كلام الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (١) ، وقال : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (٣) . . . إلى غير ذلك من الآيات ، التى تدل على اتصافه - تبارك وتعالى - بصفة الكلام .

* *

وقد سمَّى الله عَزَّ وجَلَّ ذاته فى القرآن بأسماء كثيرة غير التى ذكرناها . فمن الآيات التى ذكرت أسماء الله قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الَّذى لا إلَهَ إلا هُوَ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذى لا إلَهَ إلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ (٥) وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٦) . . . والآيات فى هذا الباب كثيرة .

كما ورد على لسان رسول الله ﷺ أسماء كثيرة فى أحاديث صحيحة - وهو أعرف الناس بذات الله عَزَّ وجَلَّ - منها : « لله تسعة وتسعون اسماً ، مائة إلا واحداً ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » (رواه البخارى ومسلم) .

وفى رواية أخرى : « مَن أحصاها » .

---

(١) النساء : ١٦٤ — (٢) البقرة : ٧٥ — (٣) التوبة : ٦

(٤) الحشر : ٢٢ - ٢٤ — (٥) الأعلى : ١ — (٦) الواقعة : ٧٤

ورواه الترمذى وزاد : « هو الله الذى لا إلهَ إلا هو ، الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصورِّ ، الغفَّار ، القهَّار ، الوهَّاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكَم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلِّى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدىء ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .

وهذه الصفات التسعة والتسعون ، ليست كل ما ورد فى أسماء الله تبارك وتعالى ، بل نجد الأحاديث التى تزيد على هذه الصفات . ففى رواية أخرى للحديث السابق : « الحنَّان ، المنَّان ، البديع » ، وورد كذلك من أسمائه تعالى : « المغيث » و « الكفيل » و « ذو الطول » و « ذو المعارج » و« ذو الفضل » و« الخلاق » .

قال أبو بكر ابن العربى فى شرح الترمذى ، حاكياً عن بعض أهل العلم : « إنه جمع من الكتاب والسُّنَّة من أسمائه تعالى ألف اسم » ، وفى كلام صاحب القصد المجرد ما يفيد ذلك ، وأشار الشوكانى إلى ذلك فى تحفة الذاكرين ، ثم قال : « وأنهض ما ورد فى إحصائها الحديث المذكور ، وفيه الكفاية ، وعلى اعتبار أن كل اسم من أسماء ذاته القدسية ، إنما يدل على صفة من صفاته تعالى ويُعبِّر عنها ، فإن كل اسم من هذه الأسماء : إما أن يدل على صفة كمال ، أو على صفة وجود ، أو صفة سلب ، أو على صفة

فعل ، ومرجع هذه الصفات كلها وهذه الأسماء إلى الثلاث عشرة صفة المذكورة فى الفقرة السابقة ، فهى أمهات صفات الفعل ، والسلب ، والكمال ، والجود ، والمعانى » .

* *

ومرة ثانية نحب أن نؤكد ، أن الخالق غير المخلوق ، وأن الله لا يشبه خلقه فى شىء : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) ، وأن من أسس ضلال البَشر فى باب الاعتقاد ، اعتقاد مشابهة الله لخلقه ، وقد رد الله فى القرآن على أى تصور من هذه التصورات ، فمثلاً زعم اليهود أن الله خلق الخلق ، واستراح فى اليوم السابع بعد ستة أيام خلق - وهذا نوع تشبيه - فرد الله عليهم بقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (٢) أى تعب . ورد على النصارى اعتبارهم أن الله مؤلَّف من أجزاء ، وأن من عباده مَن هو جزء منه ، فقال : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ، إنَّ الإنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣)

فالمسلم يثبت لله ما أثبته لذاته من صفات وأسماء ، ويُنزِّه الله عَزَّ وجَلَّ بما نزَّه يه نفسه على لسان رسوله : ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤) . . . فالله تعالى موجود ووجوده ليس كمثله شىء ، وبصير وبصره ليس كمثله شىء ، وسميع وسمعه ليس كمثله شىء ، وهكذا فى كل صفة لله عَزَّ وجَلَّ ، ولا نعرف عن الله إلا ما عرَّفنا هو بكتابه وعلى لسان رسوله . وكتاب الله لا يناقض بعضه ، وسُنَّة رسول الله الصحيحة كذلك لا تناقضه ، بل كلاهما يُفسِّر الآخر ، وكل منهما يُفسِّر بعضه ، وإنما نعرف الله

---

(١) الشورى : ١١
(٢) سورة ق : ٣٨
(٣) الزخرف : ١٥
(٤) الصافات : ١٥٩ - ١٦٠

بمجموع ما ورد فيهما ، دون أن نفهم فهماً نجعل كتاب الله وسُنَّة رسوله يناقضان بعضهما بعضاً .

كما لا نحب التكلف فى فهم النصوص ولا التعسف ، ولا نحب الخوض أصلاً فى قضية لها علاقة بالذات الإلٰهية ، إلا بما يفيد الإيمان والتسليم والتنزيه ، وعقيدتنا لذلك سهلة بسيطة ، مُجمَع عليها ، لا ينكرها علينا أحد ، فالله موجود ووجوده ليس كمثله شىء ، وسميع وسمعه ليس كمثله شىء ، وبصير وبصره ليس كمثله شىء ، ومستوٍ على المعنى الذى أراده بالاستواء ، واستواؤه ليس كمثله شىء ، ويجىء ومجيئه ليس كمثله شىء ، وقريب وقُربه ليس كمثله شىء ، وهكذا فى كل اسم أو صفة وصف الله بها ذاته : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [1] . . . هكذا كان أدب الصحابة فى هذا الشأن ، فلا نتجاوز إلى غيره .

أخرج الدارمى عن سليمان بن يسار : أن رجلاً قدم المدينة ، فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عرجوناً ، فقال : مَن أنت ؟ قال : أنا عبيد الله صبيغ ، فأخذ عمر العرجون ، وقال : أنا عبد الله عمر ، فجعل يضربه حتى دمى رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين حسبك ، قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى .

لقد أدرك عمر ما يترتب على سؤال هذا الرجل من أُمور ، وهذا واقعنا شاهد على أن الأُمة ، منذ بحثت هذه الأُمور ، اختصمت وتفرَّقت ، لذلك قال مالك للسائل عن الاستواء : « . . . والسؤال عنه بدعة » ، نسأل الله أن يطهر قلوبنا من البدع .

ونحب أن نختم هذا البحث بذكر ملاحظتين : إحداهما حول ما يذكره بعض الناس عن خواص أسماء الله ، والثانية حول اسم الله الأعظم .

---

(١) طه : ١١٠

● قضية خواص أسماء الله الحُسْنَى :

يقول الأستاذ البنا : « يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواصاً وأسراراً ، تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجاز ، وقد يتغالى البعض فيتجاوز هذا القدر ، إلى زعم أن لكل اسم خادماً روحانياً ، يخدم مَن يواظب على الذكر به ، وهكذا . . والذى أعلمه فى هذا - وفوق كل ذى علم عليم - أن أسماء الله تعالى ألفاظ مشرَّفة ، لها فضل على سائر الكلام ، وفيها بركة ، وفى ذكرها ثواب عظيم ، وأن الإنسان إذا واظب على ذكر الله تعالى ، طهرت نفسه ، وصفت روحه ، ولا سيما إذا كان ذكره بحضور قلب وفهم للمعنى ، أما ما زاد على ذلك فلم يرد فى كتاب ولا سُنَّة ، وقد نُهِينا عن الغلو فى دين الله تعالى ، والزيادة فيه ، وحسبنا الاقتصار على ما ورد » .

*

● قضية اسم الله الأعظم :

يقول الأستاذ البنا : « ورد ذكر اسم الله الأعظم فى أحاديث كثيرة منها :

١ - عن بريدة رضى الله عنه : قال : سمع النبى ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول : « اللَّهم إنى أسألك ، بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفواً أحد » . قال : فقال : « والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دُعِىَ به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى » . (رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال المنذرى : قال شيخنا أبو الحسن المقدسى : هو إسناد لا مطعن فيه ولا أعلم أنه روى فى هذا الباب حديث أجود إسناداً منه ، وقال الحافظ ابن حجر : هذا الحديث أرجح ما ورد فى هذا الباب من حيث السند) .

٢ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : دخل النبى ﷺ المسجد ورجل قد صلَّى وهو يدعو ويقول فى دعائه : « اللَّهم لَا إِلَهَ إلا أنت ، المنَّان ، بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام » . فقال النبى ﷺ : « أتدرون

بِمَ دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دُعِىَ به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى » (رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه) .

٣ - عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها : أن النبى ﷺ قال : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) . وفاتحة آل عمران : ﴿ آلم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٢) » (رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح) .

٤ - عن سعد بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هل أدلكم على اسم الله الأعظم ، الذى إذا دُعِىَ به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى ؟ الدعوة التى دعا بها يونس ، حيث نادى فى الظلمات الثلاث : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ » (٣) ، فقال رجل : يا رسول الله ؛ هل كانت ليونس خاصة ، أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ألا تسمع قول الله عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) (رواه الحاكم) .

فأنت ترى من هذه الأحاديث ومن غيرها ، أنها لم تُعيِّن الاسم الأعظم بالذات ، وأن العلماء مختلفون فى تعيينه ، لاختلافهم فى ترجيح الأحاديث بعضها على بعض ، حتى اختلفوا على نحو الأربعين قولاً . والذى نأخذه من هذه الأحاديث الشريفة ، ومن أقوال الثقات من رجال المِلَّة ، أن الاسم الأعظم دعاء مركَّب من عدة أسماء من أسمائه تعالى ، إذا دعا به الإنسان ، مع توفر شروط الدعاء المطلوبة شرعاً ، استجاب الله له ، وقد صرَّحت به الأحاديث الشريفة فى عدة مواضع .

---

(١) البقرة : ١٦٣
(٢) آل عمران : ١
(٣) الأنبياء : ٨٧
(٤) الأنبياء : ٨٨

وإذا تقرر هذا ، فما يدَّعيه بعض الناس من أنه سر من الأسرار ، يُمنح لبعض الأفراد ، فيفتحون به المغلقات ، ويخرقون به العادات ، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس ، أمر زائد على ما ورد عن الله ورسوله . وإذا احتج هؤلاء البعض بالآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (١) على القول بأن معنى : « عنده علم من الكتاب » أنه اسم الله الأعظم ، نقول لهم : قد صرَّح المفسِّرون بأن ذلك المدعو به كان : « يا حى يا قيوم » أو : ﴿ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٢) .

وادَّعى بعضهم : أنه سريانى، لفظه « آهيا شراهيا » ، وهى دعوى بغير دليل ، فلم يخرج الأمر عما ورد فى الأحاديث الصحيحة .

وخلاصة البحث .. إن بعض الناس ولعوا بالمعميات ، وادعاء الخصوصيات ، والزيادة فى المأثورات ، فقالوا ما لم يرد فى كتاب ولا سُنَّة ، وقد نُهينا عن ذلك نهياً شديداً ، فلنقف مع المأثور » .

* *

والآن وقد استعرضنا تسع ظواهر كونية ، كل ظاهرة تدلنا على الله من وجه ، واستعرضنا دلالات الظواهر ، وأن كل ظاهرة ذكرناها أو لم نذكرها ، تدل على اسم من أسماء الله ، وذكرنا بعضاً مما له علاقة بالأسماء والصفات والذات الإلهية كما وردت فى الكتاب والسُّنَّة ، يبقى أن نقارن بين هذا المفهوم الصحيح عند المسلمين عن الذات الإلَهية ، والمفاهيم الأخرى الخاطئة عند غيرهم ، ليتبين أن المسلمين وحدهم عرفوا الله حق المعرفة ، معرفة قائمة على العلم والعقل والبديهة ، لا تجد جانباً من جوانبها فيه مغمز ، وذلك آية

---

(١) النمل : ٤٠ (٢) آل عمران : ٢

على أن هذا الإسلام دين الله ، وعلى أن محمداً رسول الله ، أرسله الله ليرد الناس عن الباطل فى كل شىء ، إلى الحق فى كل شىء .

* *

وقبل أن نبدأ المقارنة نحب أن نلخص بعض ما مرَّ معنا فى هذه الفقرة :

١ - أن ظواهر هذا الكون ، تدل على أسماء الله الحُسْنَىٰ ، وأسماؤه تدل على صفاته ، وصفاته تدلنا على ذاته .

٢ - مما تدلنا عليه ظواهر الكون ، أن الله عَزَّ وجَلَّ متصف : بالعلم ، والإرادة ، والقُدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والوحدانية ، والبقاء ، والأوَّلية ، والقيومية ، والاستغناء . وأن من أسمائه : المذل ، المعز ، الرزاق ، المعطى ، المنعم . .

٣ - ونظرة إلى ما وصف الله عَزَّ وجَلَّ به ذاته ، أو سمَّاه به رسوله ﷺ ، ترينا انطباق ما دلتنا عليه الظواهر بدلالة العقل ، على ما دلنا عليه النص مع زيادة فى النص ، تصعد بقولنا إلى منتهى الكمال والأدب ، ودين يأخذ بيد العقل فى هذا الموضوع إلى مثل هذه الذروة ، لا يبقى عند الإنسان شكاً بأنه وحى .

٤ - وفى كل ما مَرَّ ، آية على أن المسلم فى هذا الموضوع وغيره - لأنه فرع منه - قد اجتمع له صواب العقل ، وصفاء الفهم ، وسلامة الوحى الذى يأخذ بيد العقول والفهم إلى الطريق السوىّ .

* * *

مقارنات

تحت عنوان « العقيدة الإلٰهية » كتب « عباس محمود العقاد » فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » بحثاً ، قارن به العقيدة الإسلامية فى« الله جَلَّ جلاله » مع عقيدة غير المسلمين فى باب الأُلوهية ، والملاحَظ أن المقارنة منصبَّة على بعض عقائد الفلاسفة ، وعلى العقائد الدينية فى وضعها الذى صارت إليه كما يفهمه أهلها زمن الرسالة الإسلامية ، لا كما هى فى أصولها عند الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أصحاب هذه الرسالات - إن كانت فى الأصل عن رسل - إذ أننا نعتقد أن موسى وعيسى وكل رسول لله عقيدتهم فى الذات الإلٰهية هى نفسها عقيدة سيدنا محمد ﷺ ، إذ كلهم رسول لرب واحد ، ولكن هذه العقيدة حُرِّفت وبُدِّلت بعده ، كما حُرِّف وبُدِّل غيرها ، فأصبحت تحتاج إلى تصحيح ، فكانت رسالة محمد ﷺ هذا التصحيح الكامل ، فالانحراف الكامل فى تصور الذات الإلٰهية فى العالَم كله من ناحية ، والتصحيح الكامل لهذا الانحراف من ناحية ثانية ، دليل على أن رسالة محمد ﷺ من عند الله . ونحن هنا لن ننقل بحث العقاد كله ، وإنما سنختار منه ، مع ملاحظة أن ما ننقله هو كلامه نفسه ، وكل تعليق فى أسفل الصحيفة من كلامنا . يقول العقاد :

« العقيدة الإلٰهية »

« العقيدة فى الإلٰه رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها . مَن عرف عقيدة قوم فى إلٰههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ، ومن صحة المقاييس التى يُقاس بها الخير والشر ، وتُقدَّر بها الحسنات والسيئات ، فلا يهبط دين وعقيدته فى الإلٰه عالية ، ولا يعلو دين وعقيدته فى الإلٰه هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذى تتبعه جميع الموجودات .

« ولقد كان النظر فى صفات الله ، مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية ، وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الأديان ، لأن الفيلسوف النظرى ينطلق فى تفكيره وتقديره غير مقيَّد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التى يتقيَّد بها الحكيم الدينى ، ويتقيَّد بها مَن يأتمون به من أتباعه فى الحياة العامة والمعيشة الخاصة ، فظهر بين الفلاسفة النظريين مَن سما بالتنزيه الإلٰهى صعداً إلى أوج لا يلحق به الخيال ، فضلاً عن الفكر والإحساس .

« وجاء الإسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة فى الإلٰه الواحد الأحد ، صحَّحت فكرة الفلسفة النظرية كما صحَّحت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين - فى جانب النقص منهما - أعظم المعجزات التى أثبتت له فى حكم العقل المنصف البديهة الصادقة أنه وحى من عند الله .

« يقال على الإجماع : إن صفات الإله قد ارتفعت إلى ذروتها العليا من التنزيه والتجريد [١] فى مذهب « أرسطو » الفيلسوف اليونانى الكبير .

« والذين يرون هذا الرأى لا ينسون مذهب « أفلوطين » إمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين إلى العصر الأخير ، غير أنهم لا يذكرونه فى معرض الكلام على التنزيه فى وصف الله ، لأن مذهبه أقرب إلى الغيبوبة الصوفية منه إلى التفكير الجلى والمنطق المعقول ، وطريقته فى التنزيه أن يمعن فى الزيادة على كل صفة يوصف بها الله ، فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلما استطاع الزيادة اللفظية ، حتى تنقطع الصلة بينها وبين جميع المدلولات المفهومة أو المظنونة ، ويرجح الأكثرون

(١) هذا من حيث الدعوى لا من حيث الحقيقة كما يبينه العقاد بعد .

أن « أفلوطين » نفسه لم يكن يتصور ما يصوِّره من تلك الصفات ، وإنما كانت غايته القصوى أن يذهب بالتصور إلى منقطع العجز والإعياء .

« فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية ، ليقول بصفة الأحدية ، ويقول : إن الواحد غير الأحد [(١)] ، لأن الواحد قد يدخل فى عداد الاثنين والثلاثة والعشرة ، ولا يكون الأحد إلا مفرداً بغير تكرار .

« ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود ، ليقول : إن الله لا يوصف بأنه موجود ، تنزيهاً له عن الصفة التى يقابلها - العدم - وتشترك فيها الموجودات أو الموجدات .

« لهذا يضربون المثل بأرسطو فى تنزيه الإله ، ولا يضربون المثل بأفلوطين ، لأن مذهبه ينقطع فى صومعة من غيبوبة الذهول ، لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية .

« ومذهب أرسطو فى الإله أنه : كائن أزلى ، أبدى ، مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا إرادة . مذ كان العمل طلباً لشىء ، والله غنى عن كل طلب ، وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال ، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ، ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الإله - فى رأى أرسطو - أن يبتدىء العمل فى زمان ، لأنه أبدى سرمدى لا يطرأ عليه طارىء يدعوه إلى العمل ، ولا يستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ، ولا جديد ولا قديم ، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التى لا بُغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه .

---

(١) المسلمون يقولون : بالأحدية ، والواحدية ، فالله واحد أحد : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (البقرة : ١٦٣) ، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص : ١) .

« فالإله الكامل المطلق الكمال ، لا يعنيه أن يخلق العالَم ، أو يخلق مادته الأولى وهى « الهيولى » .. ولكن لهذه « الهيولى » قابلية للوجود ، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذى يفيض عليها من قِبَل الإله ، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع فى حدودها . فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها : أنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار :

« كمال مطلق لا يعمل ولا يريد .

« أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء ..

« ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شىء (١) .

« ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذى يهابه مَن يحس قدرته ، فلا يجترئ عليه بالنقد والتسفيه ، قبل أن يُفرغ جهده فى التماس المعذرة له من جهل عصره وقصور الأفكار حوله ، لا من جهله هو أو قصور تفكيره ، فإنه لم يُعوِّدنا فى تفكيره احتمالاً قط لا يتقصاه إلى قصارى مداه ، ولا يستوفى مقتضياته وموانعه جهد ما فى الطاقة الإنسانية من استيفاء .

« لنذكر أنه أرسطو ، لكى نذكر أن هذا العقل النادر ، لم يؤت من نقص فى تصور الصفات العلوية ، إلا لأنه عاش فى زمان لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الأرضية - السفلى - التى نحسها ونعيش بينها ، ولو أنه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراضها ، لكان له رأى فى الكمال العلوى غير ذلك الرأى الذى ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقيس (٢) .

---

(١) أرسطو وغيره فى معرفة حقائق الوجود أطفال إذا قيسوا بالرسل عليهم الصلاة والسلام .

(٢) إذا كان أرسطو المعلم الأول - كما يقولون - على مثل هذا الجهل ، فكيف يخطر ببال بشر أن يترك أتباع الرسل لسفاهات ومتاهات غيرهم .

« لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية - السماوية - أنها خالدة باقية لا تفنى ، لأنها من نور والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب .

« ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الأرضية - السفلى - كلها من نور ، وأن عناصر المادة كلها تؤول إلى الذَرَّات والكهارب ، وأن هذه الذَرَّات والكهارب تنشق ، فتؤول إلى شعاع ، لما ساقه الظن والقياس إلى ذلك الخطأ فى التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفناء ، أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب .

« ولعل إدراكه لذلك الخطأ فى فهم لوازم البساطة والكمال ، ولوازم البقاء والفناء ، كان خليقاً أن يهديه إلى فهم خطئه فى تصور لوازم الكمال الإلهى ، فلا يمتنع فى عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات الحُسْنَى التى وُصِفَ بها الإله فى الإسلام ، ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والإرادة ، ولا يمتنع فى عقله أن يكون لهذه الصفات لوازمها ومقتضياتها ، إذ لا تكون قدرة بغير مقدور عليه ، ولا يكون كرم بغير إعطاء ، ولا تكون مشيئة بغير اختيار بين أمرين ، وإذا اختار الله أمراً فهو لا يختاره لذاته سبحانه وتعالى ، بل يختاره لمخلوقاته التى تجوز عليها حالات شتَّى لا تجوز فى حق الإله ، وإذا خلق الله شيئاً فى الزمان فلا ننظر إلى الأبدية الإلهية بل ينبغى أن ننظر إلى الشىء الموجود المخلوق فى زمانه ، ثم لا مانع عقلاً من أن تتعلق به إرادة الله الأبدية على أن يكون حيث كان فى زمن من الأزمان .

« لقد كان مفهوم البساطة الأبدية الباقية عند أرسطو ، غير مفهومها الذى لمسناه اليوم لمساً فى هذه الكائنات الأرضية - السفلية - فلا جَرَم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا ، غير مفهومه الذى جعله أرسطو أشبه شىء بالعدم المطلق ، غير عامل ولا مريد ولا عالم بسوى النعمة والسعادة . . قانع بأنه منعم سعيد .

« وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل : هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفى أن يسمو بالكمال الأعلى فوق مرتبته التى يستلهمها المسلم من عقيدة دينه ؟

« نقول عن يقين : كلا ، فإن الله فى الإسلام إله صمد لا أول له ولا آخر ، وله المثل الأعلى ، فليس كمثله شىء ، وهو محيط بكل شىء .

« ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل : هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية فى مذهب التنزيه ؟

« والجواب : كلا ، بل الدين هنا فلسفة أصح من الفلسفة إذا قيست بالقياس الفلسفى الصحيح ، لأن صفات الإله التى تعددت فى عقيدة الإسلام لا تعدو أن تكون نفياً للنقائص التى لا تجوز فى حق الإله ، وليس تعدد النقائص مما يقضى بتعدد الكمال المطلق الذى ينفرد ولا يتعدد . فإن الكمال المطلق واحد ، والنقائص كثيرة ينفيها جميعاً ذلك الكمال الواحد . وما إيمان المسلم بأن الله عليم قدير فعَّال لما يريد ، كريم رحيم ، إلا إيماناً بأنه جَلَّ وعلا قد تنزَّه عن نقائص الجهل والعجز والجحد والغشم ، فهو كامل منزَّه عن جميع النقائص ، ومقتضى قدرته أن يعمل ويخلق ، ويريد لخلقه ما يشاء ، ومقتضى عمله وخلقه أن يتنزَّه عن تلك « العزلة السعيدة » التى توهمها أرسطو مخطئاً فى التجريد والتنزيه . فهو سعيد [١] بنعمة كماله ، سعيد بنعمة عطائه ، كفايته لذاته العلية لا تأبى له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود فى الزمان ، أى من ذلك الوجود المحدود الذى لا يغض من وجود الله فى الأبد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل .

« ومن صفات الله فى الإسلام ، ما يعتَبر رداً على فكرة الله فى الفلسفة الأرسطية ، كما يُعتبر رداً على أصحاب التأويل فى الأديان الكتابية وغير الكتابية .

---

(١) إطلاق لفظ السعادة على الله إطلاق فلسفى لم يستعمل ولا يُستعمل فى المصطلح الإسلامى .

« فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ، ويتنزَّه عن الإرادة لأن الإرادة طلب فى رأيه ، والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات ، لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة . لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه . ولكن الله – فى الإسلام – عالم الغيب والشهادة :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (٤) ، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (٥) ، ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٦)

« وهو كذلك « مريد » و ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (٧) .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٨) .

« وفى هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات ، كما جاء فى أقوال بعض المفسِّرين ، ولكنها ترد على كل مَن يغلون إرادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون فى يهود الجزيرة مَن يشير إلى رواية من روايات الفلسفة الأرسطية بذلك المقال .

« وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة فجاء فيه من سورة (الحج) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ

---

(١) يونس : ٦١ — (٢) يس : ٧٩ — (٣) المؤمنون : ١٧

(٤) الأعراف : ٨٩ — (٥) الأعراف : ٥٤ — (٦) فاطر : ٣٨

(٧) هود : ١٠٧ — (٨) المائدة : ٦٤

وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

« وأشار إلى الدهريين فجاء فى سورة (الأنعام) : ﴿ وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٢) .

« وجاء فيه من سورة (الجاثية) : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٣) .

« فكانت فكرة الله فى الإسلام ، هى الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها ، ولهذا بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الإلٰهية ، وتضمنت تصحيحاً للضمائر وتصحيحاً للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله ، بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس .

« ومن ثَمَّ كان فكر الإنسان من وسائل الوصول إلى معرفة الله فى الإسلام ، وإن كانت الهداية كلها من الله .

« ومجمل ما يقال عن عقيدة الذات الإلٰهية التى جاء بها الإسلام : أن الذات الإلٰهية غاية ما يتصوره العقل البَشرى من الكمال فى أشرف الصفات . وقد جاء الإسلام بالقول الفصل فى مسألة البقاء والفناء . فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفانى صورة أقرب إلى الفهم من صورتيهما فى العقيدة الإسلامية ، لأن العقل لا يتصور وجودين سرمديين ، كلاهما غير مخلوق ، أحدهما مجرد والآخر مادة ، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء .

« ولكنه يتصور وجوداً أبدياً يخلق وجوداً زمانياً ، أو يتصور وجوداً يدوم ، ووجوداً يبتدىء وينتهى فى الزمان .

---

(١) الحج : ١٧ (٢) الأنعام : ٢٩ (٣) الجاثية : ٢٤

« قديماً قال أفلاطون – وأصاب فيما قال – : « إن الزمان ليس محاكاة للأبد . . لأنه مخلوق والأبد غير مخلوق » .

« فبقاء المخلوقات بقاء فى الزمن ، وبقاء الخالق بقاء أبدى سرمدى لا يحده الماضى والحاضر والمستقبل ، لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال فى تصور أبناء الفناء ، ولا تجوز فى حق الخالق السرمدى حركة ولا انتقال .

« فالله هو : ﴿ الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ (١) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ (٢) ، و﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٣) .

« وأياً كان المرتقى الذى ارتفع إليه تنزيه الفكرة الإلهية فى مذهب أرسطو كما شرحناه بعض الشرح ، أو مذهب أستاذه أفلاطون كما أومأنا إليه بعض الإيماء ، فهذا التنزيه الفلسفى (٤) كاد أن يكون خيالاً جامحاً بالنسبة إلى العقائد الإلٰهية التى كانت فاشية بين الكهّان والمتعبدين من أبناء اليونان .

« فلا شك أن صورة « جوبيتر » رب الأرباب عندهم ، كانت أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزَّهين ، ولو لم يبلغ وصف التنزيه عندهم نصيباً ملحوظاً من الكمال .

« كان « جوبيتر » حقوداً لدوداً ، مشغولاً بشهوات الطعام والغرام ، لا يبالى من شئون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادى فى طغيانه ، وكان يغضب على « أسقولاب » إلٰه الطب ، لأنه يداوى المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية ، وكان يغضب على « برومثيوس » إلٰه المعرفة والصناعة ، لأنه يُعلِّم الإنسان أن يستخدم النار فى الصناعة ، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب ، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم ، فلم يقنع بموته ولا بإقصائه

---

(١) الفرقان : ٥٨
(٢) المؤمنون : ٨٠
(٣) القصص : ٨٨
(٤) ومع ذلك كان ضرباً من التخبط والهذيان .

عن حظيرة الآلهة ، بل تفنن فى اختراع ألوان العذاب له ، فقيَّده إلى جبل سحيق ، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار ، حتى إذا جنَّ الليل عادت سليمة فى بدنه ، لتعود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس . . ولا يزال هكذا دواليك فى العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء . ومما رواه الشاعر الفيلسوف « هزيود » عن علَّة غضب الإله على « برومثيوس » أنه قسم له نصيبه من الطعام فى وليمة الأرباب ، فأكثر فيه من العظام . وأقلَّ فيه من اللحوم والشحوم ، فاعتقد « جوبيتر » أنه يتعالم عليه بمعرفته وفطنته ، لأنه اشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة ، لم يشتهر بها الإله الكبير . ولا يغيب عنا ونحن نروى أخبار الإله الكبير منقولة عن « هزيود » أن هذا الشاعر الفيلسوف ، قد اجتهد قصارى اجتهاده فى تنزيه « جوبيتر » وتصويره للناس فى صورة من القداسة والعظمة ، تناسب صورة الإله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئاً ما فى ديانة اليونان الأقدمين .

« ومما رواه الرواة المختلفون عن « جوبيتر » ، أنه كان يخادع زوجته « هيرا » ويرسل إله الغمام لمداراة الشمس فى مطلعها ، حذراً من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ، ومفاجأته بين عشيقاته على عرش « الأولمب » . . وحدث مرة أنها فاجأته وهو يُقَبِّل ساقيه « جانيميد » راعى الضأن الجميل الذى لمحه فى الخلاء ، فاختطفه وصعد به إلى السماء . . فلم يتنصل « جوبيتر » من تهمة الشغف بساقيه ، ومضى يُسوِّغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه .

« ومثل الأُمم القديمة كمثل اليونان فى بُعد الفارق بين صورة الإله فى حكمة الفلاسفة ، وبين صورته فى شعائر الكهّان والمتعبدين .

« فالهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعابدها على طوائف من الأرباب : منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة ، ومنها ما يلحق بالأوثان والأنصاب ، وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقرَّبوا إليه بالبغاء المقدس وسفك الدماء .

« وقد انتهت هذه الأرباب المتعددة إلى الثالوث الأبدى الذى اشتمل على ثلاث من الصور الإلْهية ، هى : الإلْه « براهما » فى صورة الخالق ، والإله « فشنو » فى صورة الحافظ : والإلْه « سيڤا » فى صورة الهادم . . فجعلوا الهدم والفساد من عمل الإلْه الأعلى الذى يتولاه حين يتشكل لعباده فى تلك الصورة . وزاد على ذلك أنهم جعلوا لكل إلْه قريناً يسمونه « الشاكنى » أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون إليها من الشرور ما ينزهون عنه قرينها أو صاحبها .

« فهذه الأرباب صور لا تتباعد المسافة بينها وبين صور الشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة المعهودة فى أقدم الديانات ، فإذا ارتفعنا فى معارج التنزيه والتجريد [1] بلغنا منها ذروتها العليا فى صورتين مختلفتين : إحداهما صورة « الكارما » والصورة الأخرى « النرڤانا » وكلتاهما تُحسب من قبيل المعانى الذهنية ، وقلَّ أن توصف بوصف الذات الإلْهية . فالكارما هى القدر الغالب على جميع الموجودات ومنها الآلهة وأفلاك السماء ، وهذا القدر هو فى الواقع حالة من الحالات العامة ، يمكن أن نعبِّر عنها بأنها هى « ما ينبغى » أو هى الوضع الحاصل على النحو الأمثل ، فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتاً إلْهية معروفة الصفات ، ولكنه مرادف لكلمة « الانبغاء » أو كلمة « الواجب » كما وجب فى الحوادث والموجودات .

« والنرڤانا حالة عامة كحالة الكارما ، إلا أنها إلى العدم أقرب منها إلى الوجود ، لأنها الحالة التى تنتهى إليها جميع الأرواح حين تفرغ من عناء الوجود ، وتتجرد من شواغل الأجساد وشواغل الأرواح على السواء ،

---

(١) عندما يتحدث العقاد عن التنزيه والتجريد عند الأُمم ، يقصد بذلك التنزيه والتجريد النسبيين اللذين وصل إليهما عقل الأُمة فى حالة من حالاتها ، لا التنزيه والتجريد كما ينبغى أن يكونا ، فذانك لم يعرفهما إلا المسلمون كما هو واضح من سياق كلامه .

وتتساوى أرواح الآلهة وأرواح البشر فى حالة النرفانا هذه ، كلما سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود .

« ولسنا نريد فى هذه الصفحات القليلة ، أن نتتبع صورة الإلٰهية والربوبية كافة بين أُمم الحضارات الأولى ، وإنما نجتزىء منها بالنماذج الدالة عليها فيما ارتقت إليه من التنزيه ، وفيما هبطت إليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه ، ولهذا يغنينا عن الاسترسال فى شرح عادات الأقدمين أن نضيف إلى ما تقدم مثلاً آخر يتمم أمثلة اليونان والهند ، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة إلى عهد الديانات الكتابية ، وهى - أى الديانة المصرية القديمة - أرفع الديانات فيما نعلم ترقياً إلى ذروة التوحيد والتنزيه ، وإن كانت فى عبادتها الشائعة تهبط أحياناً إلى مهبط الديانات الغابرة من عبادة الطواطم والأنصاب ، وعبادة الأرواح الخبيثة والشياطين .

« بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتنزيه فى ديانة « آتون » التى بشَّر بها الفرعون المنسوب إليه « أخناتون » .

« ويؤخذ من صلوات أخناتون المحفوظة بين أيدينا ، أنه كان يُصلِّى إلى خالق واحد ، يكاد يقترب فى صفاته من الإلٰه الخالق الذى يُصلِّى له العارفون من أتباع الديانات الكتابية ، لولا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس ، فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزاً له ومرادفاً لاسمه فى معظم الصلوات » .

* *

« هذه الشواهد من التاريخ القديم ، شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتفصيل ، وهى مغنية عن الدلالة على المدى الذى وصل إليه تنزيه الفكرة الإلٰهية فى أُمم التاريخ القديم جميعها ، لأنها تدل على ما وصلت إليه الفكرة الإلٰهية المنزَّهة فى أرفع الحضارات الأُولى ، وهى الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية .

« وجملة الملاحظات على تنزيه الفكرة الإلهية عند الأقدمين ، أنه كان تنزيهاً خاصاً مقصوراً على الفئة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الأسرار الدينية .

« ثم يُلاحَظ عليه بعد ذلك : أنه تنزيه لم يسلم فى كل آنة من ضعف يعيبه عقلاء ، ويجعله غير صالح للأخذ به فى ديانات الجماعة على الخصوص .

« ففى الديانة المصرية ، لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية ، ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الأثر فى عبادة آتون .

« وديانة الهند لم تُعلِّم الناس الإيمان « بذات إلهية » معروفة الصفات ، وليس فى معبوداتها أشرف من الكارما والنرڤانا ، وهما بالمعانى الذهنية أشبه منهما بالكائنات الحية ، وإحداهما – وهي النرڤانا – إلى الفناء أقرب منها إلى البقاء .

« والتنزيه الفلسفى الذى ارتفعت إليه حكمة اليونان فى مذهب أرسطو ، يكاد يُلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق ، ويُخرج لنا صورة للإله لا تصلح للإيمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح .

« وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الإلهى مبلغه الذى جاءت به الديانة الإسلامية ، صالحاً للإيمان به فى العقيدة الدينية وصالحاً للأخذ به فى مذاهب التفكير » .

* *

« والديانة الإسلامية – كما هو معلوم – ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية ، مكانها فى علم المقارنة بين الأديان مرتبط بمكان الديانتين الأخريين وهما الموسوية والمسيحية ، وتجرى المقارنة بين الإسلام وبينهما فعلاً فى كتابات الغربيين ، فلا يتورع أكثرهم من حسبان الإسلام نسخة مشوَّهة أو محرَّفة من المسيحية أو الموسوية . .

« والمسألة – بعد – مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة ، لا تحتمل الجدل الطويل فى ميزان النقد والمقارنة ، وإن احتملته فى مجال الدعوة

والخصومة العصبية ، ولا حاجة فى المقارنة بين هذه الديانات إلى أكثر من ذكر العقيدة الإلهية فى كل منها للعلم الصحيح بمكانها من التنزيه فى حكم الدين وحكم المعرفة النظرية .

« إن المراجع التى تلقينا منها عقائد العبريين كما يدين بها أتباع الديانة الموسوية إلى يومنا هذا ، مبسوطة بين أيدى جميع القادرين على مطالعتها فى لغاتها الأصلية أو لغاتها المترجمة ، وأشهرها التوراة [1] والتلمود . فصورة الإله فى هذه المراجع من أوائلها إلى أواخرها هى صورة « يهوه » إله شعب إسرائيل . .

« وقد وصفوه فى كتبهم المقدسة ، فقالوا عنه مرة : إنه يحب ريح الشواء ، وقالوا عنه مرة أخرى : إنه يتمشى فى ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها ، وقالوا عنه غير هذا وذاك . إنه يصارع عباده ويصارعونه ، وإنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده ، وغبروا ردحاً من الدهر وهم يسوون بينه وبين عزازيل شيطان البرية ، فيتقرَّبون إليه بذبيحة ، ويتقرَّبون إلى الشيطان بذبيحة مثلها . .

« وجمد العبريون على عقيدتهم الإلٰهية ، فظل « يهوه » إلٰهاً عبرياً ، يستأثر به أبناء يعقوب بن إسحاق ، ولا يرجو الخلاص بمعونة منه إلا الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذُرِّيته من بعده ، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العبريين قبل عصر الميلاد المسيحى ، ولم يأت التغيير فيه من قِبَل أبناء اسرائيل المحافظين على عقيدتهم الأولى ، بل أتى هذا التغيير من قِبَل المصلحين المجدِّدين فى الدين اليهودى ، وقام به من بينهم رسول مغضوب عليه فى شِرعتهم ، متهم بالمروق من زمرتهم ، وهو عيسى ابن مريم صلوات الله عليه وسلامه .

---

(١) نصوص التوراة يلتزم بها اليهود والنصارى على السواء ، ولا يستحى هؤلاء وأولئك أن يقارنوا عقيدتنا بعقيدتهم مع كل ما فيها من سفاسف كما سنرى ، بل يزيدون على ذلك أنهم يعتبرون عقيدتنا هابطة عن عقائدهم ، ثم يقال : إن لهؤلاء عقولاً !!

« وابتدأ عيسى ابن مريم دعوته الأولى مختصاً بها بنى إسرائيل دون سواهم من العالمين ، وذكرت لنا الأناجيل تفصيل الحوار الذى دار بين السيد المسيح وبين المرأة الكنعانية التى توسَّلت إليه أن يُخرج الشيطان من ابنتها ، فروى إنجيل مرقس فى الإصحاح السابع : « أن امرأة كان بابنتها روح نجس ، سمعت به ، فأتت وخرَّت عند قدميه ، وكانت المرأة أُممية - أى من أبناء الأمم غير الإسرائيلية - وفى جنسها فينيقية سورية ، فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها ، وأما يسوع ، فقال لها : دعى البنين أولاً يشبعون ، لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب ، فأجابت وقالت له : نعم يا سيد ، والكلاب أيضاً تحت المائدة تأكل من فتات البنين ، فقال لها لأجل هذه الكلمة : اذهبى قد خرج الشيطان من ابنتك . . »(١) .

« ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقس حيث جاء فى الإصحاح الخامس عشر من الإنجيل المنسوب إليه : إن السيد المسيح « خرج من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيداء ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى يا سيد يا ابن داود . ابنتى مجنونة جداً . فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أُرسل إلّا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ، فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد أعنِّى . فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب ، فقالت : نعم يا سيد . والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها ، حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة ؛ عظيم إيمانك ، ليكن لك كما تريدين . فشفيت ابنتها من تلك الساعة »(٢) .

« ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التلاميذ فى الأناجيل ، أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاص بنى إسرائيل بدعوته، ولم يتحوَّل عنهم إلى غيرهم إلا بعد إصرارهم على رفضه ولجاجتهم فى إنكار رسالته ، فوجد

(١) إنجيل مرقس ٧ : ٢٥ - ٢٩

(٢) إنجيل متى ١٥ : ٢١ - ٢٨

بعد اليأس منهم أنه فى حِلٍّ من صرف الدعوة عنهم إلى الأُمم المقيمة بينهم ، وضرب المثل لذلك بصاحب الدار الذى أقام وليمة العرس فى داره ، وأرسل الدعوة إلى ذويه وجيرانه ، فتعللوا بالمعاذير والشواغل ولم يستجيبوا لدعوته ، فأطلق غلمانه إلى أعطاف الطريق يدعون مَن يصادفهم من الغرباء وعابرى السبيل ، على غير معرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم ، حتى امتلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن اختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها (١) .

« ويُلاحَظ فى قصة المرأة الكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود ، وأن عقيدة العبريين لم تزل تُعلِّق آمالهم بالخلاص على يد رسول من ذُرِّية داود ومن سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

« ومضى عصر المسيح ، وجاء بعده عصر بولس الرسول ، وعقيدة الخلاص الموقوف على سلالة إبراهيم الخليل باقية مسلَّمة بين العبريين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد ، وإنما أضيف إليها تفسير جديد لهذه البنوة ، وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على بنوة الجسد ، ولا فارق فيها بين مَن يُحيون سُنَّة إبراهيم الخليل من العبريين أو من الأُمميين الذين يسميهم العبريون بـ « الجوييم » . . أى الأقوام الغرباء .

« فالعقيدة الإلٰهية كما دان بها العبريون ، وجمدوا عليها إلى عصر الميلاد ، إنما هى عقيدة شعب مختار بين الشعوب فى إلٰه مختار بين الآلهة (٢) ، وليس فى هذه العقيدة إيمان بالتوحيد ، ولا هى مما يتسع لديانة إنسانية ، أو مما يصح أن يحسبه الباحث المنصف مقدمة للإيمان بالإلٰه الذى يدعو إليه الإسلام .

« ثم تطورت هذه العقيدة الإلٰهية بعد ظهور المسيحية ، فانتقلت من الإيمان

---

(١) انظر إنجيل متى ٢٢ : ١ - ١٠

(٢) يشير العقاد هنا إلى كثير من النصوص التوراتية التى تُشعر القارىء بأن اليهود لا يعتبرون الله رب العالمين ، بل هو ربهم فقط ، وللآخرين أربابهم ، وليس هذا طبعاً العقيدة الصافية التى دعا لها موسى عليه السلام وفصَّلتها التوراة قبل تحريفها .

بالإله لأبناء إبراهيم فى الجسد ، إلى الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم فى الروح ، وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول ، واتصلت المسيحية بالأمم الأجنبية وفى مقدمتها الأمة المصرية ، فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة إلهية جديدة فى مذهب العبريين ، وهى عقيدة الثالوث المجتمع من الآب والابن والروح القدس ، وفحواها أن المسيح المُخلِّص هو ابن الله ، وأن الله أرسله فداءً لأبناء آدم وحواء ، وكفَّارة عن الخطيئة التى وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة فى الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها .

« وظهر الإسلام وفحوى العقيدة الإلهية كما تطوَّرت بها الديانة المسيحية ، أن الله الإله واحد من أقانيم [1] ثلاثة هى : الآب والابن والروح القدس ، وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم ، وهو ذو طبيعة إلهية واحدة فى مذهب فريق من المسيحيين ، وذو طبيعتين - إلهية وإنسانية - فى مذهب فريق آخر .

« ومن البديهى أن الباحث الذى يريد تطبيق علم المقارنة بين الأديان على المسيحية والإسلام ، مُطالَب بالرجوع إلى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الإسلام فى الجزيرة العربية ، فلا يجوز لأحد من هؤلاء الباحثين ، أن يزعم أن الإسلام نسخة محرَّفة من المسيحية ، إلا إذا اعتقد أن نبى الإسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها فى بيئته العربية ، وفيما اتصل به من البيئات الأخرى حول جزيرة العرب . ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية فى سائر البيئات ومختلف العصور ، فالعقيدة المسيحية التى يجوز لصاحب المقارنة بين

---

(١) ١ + ١ + ١ = ١ هذا الكلام غير المعقول يعتبره الذين لا يستحيون أستاذاً لمثل هذا النص : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمَٰنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ (مريم : ٨٨ - ٩٥)

الأديان أن يجعلها قدوة للإسلام ، إنما هى عقيدة المسيحيين فى الجزيرة العربية وما حولها ، وقد وصف « جورج سيل » مترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية حالة المسيحيين فى الحجاز وفى سائر الأنحاء القريبة منه ، فقال ما ننقله من ترجمة مقدمته للقرآن : « إنه من المحقق أن ما أَلَمَّ بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال فى صدر المائة الثالثة للميلاد ، قد اضطر كثيرين من أنصارها ، أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلباً للحرية ، وكان معظمهم « يعاقبة » ، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفِرقة . وأهم القبائل التى تنصرَّت : حمير ، وغسان ، وربيعة ، وتغلب ، وبهراء ، وتنوخ ، وبعض طيء ، وقضاعة ، وأهل نجران ، والحيرة . . ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك – ولا بد – أنه كان للنصارى أساقفة فى مواضع جمَّة ، لتنظم بهم سياسة الكنائس ، وقد تقدَّم ذكر أسقف ظفار ، وقال بعضهم : كانت نجران مقام أسقف ، وكان لليعاقبة أسقفان ، يدعى أحدهما : أسقف العرب بإطلاق اللفظ ، وكان مقامه باكولة – وهى الكوفة عند ابن العبرى ، أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء – وثانيهما يدعى : أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة ، أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريكهم » .

« إلى أن يقول : « أما الكنيسة الشرقية ، فإنها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضى ، وانتقض حبلها بمحاكاة الآريوسيين والنساطِرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذى ثبت بعد البحث أن كُلاًّ من بدعتى النساطرة واليعاقبة ، كانت بأن تدَّعى اختلافاً فى التعبير عن المعتقد ، أولى من أن تدَّعى اختلافاً فى المعتقد نفسه ، وبأن تدَّعى حُجَّة يتغلب بها كل من المتناظرين على الآخر ، أولى من أن تدَّعى سبباً موجباً لالتئام مجامع عديدة ، يتردد إليها جماعة القساوسة والأساقفة ، ويتماحكون ، ليُعلى كل واحد منهم كلمته ، ويحيل القضايا إلى هواه . ثم

إن نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك ، كان كل واحد منهم يختص نفراً من قوّاد الجيش ، أو من أصحاب الخطب ، يكون له عليهم الولاء ويتقوّى بهم ، وبذلك صارت المناصب تُنال بالرشى ، والنصفة تُباع وتُشترى جهاراً . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وأرسكينوس ، فى المشاحنة على منصة الأسقفية - أى أسقفية روما - ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة ، وسفك الدماء بين حزبيهما . . وكان أكثر ما تنشأ المناقشات من القياصرة أنفسهم ، ولا سيما القيصر قسطنطينوس ، فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ، ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية . .

« هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب . أما فى بلاد هذه الأُمَّة التى هى موضوع بحثنا ، فلم تكن خيراً من ذلك . . فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتُنشَر معه فى اليوم الآخر ، وقيل إن أوربيجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب . وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها ! !

« فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألُوهية العذراء مريم [1] ويعبدونها كأنما هى الله ، ويقرِّبون لها أقراصاً مضفورة من الرقاق يقال لها « كليرس » ، وبها سمى أصحاب هذه البدع « كليريين » . . وفضلاً عن ذلك ، فقد اجتمع أيضاً فى جزيرة العرب عدد وافر من الفِرق المختلفة الأسماء ، لجأوا إليها هرباً من اضطهاد القياصرة » . .

« كانت عقائد الفِرَق المسيحية فى جزيرة العرب ، وفى العالَم المترامى حول

---

(١) أشار القرآن إلى هؤلاء بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ (المائدة : ١١٦) .

جزيرة العرب ، على هذا النحو الذى وصفه رجل متعصب على الإسلام ، لا يُتهم بمحاباته ، ولا يُظَن به أنه يتجانف على المسيحية وهو قادر على مداراتها ، ومن الواضح البيِّن أن عقائد الفرَق المسيحية على ذلك النحو ، لم تكن مما يغرى بالإعجاب ، أو مما يدعو إلى الاقتداء . ومن الواضح البيِّن أن موقف الإسلام ، كان موقف المصحح المتمم ، ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية .

فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزَّه عن لوثة الشرك ، منزَّه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزَّه عن التشبيه الذى تسرَّب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية .

« فالله الذى يؤمن به المسلمون ، إله واحد لم يكن له شركاء ، و﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

« وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ، ولكنه هو ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [2] خلق الناس جميعاً ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى ، فلا فضل بينهم لعربى على أعجمى ، ولا لقرشى على حبشى ، إلَّا بالتقوى .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [3] .

« وهو واحد أحد : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [4] .

« لا يأخذ إنساناً بذنب إنسان ، ولا يُحاسبُ أُمَّةً خَلَفت بجريرة أُمَّة سَلَفت ، ولا يدين العالَم كله بغير نذير : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [5] ، [6] ،

---

(١) التوبة : ٣١ (٢) التكوير : ٢٩
(٣) الحجرات : ١٣ (٤) الإخلاص : ٣ - ٤
(٥) أين هذا من عقيدتهم فى إثم البَشرية كلها لخطيئة آدم عليه السلام ، حتى يضطر الله فى زعمهم الكاذب لإعدام ابنه . تعالى الله عما يصفون ! !
(٦) فاطر : ١٨

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (٢) .

« ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه بـ ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٣) .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٤) .

و﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ (٥) .

﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (٦) .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧) .

« وللباحث فى مقارنات الأديان ، أن يقول ما يشاء عن هذا الإله الواحد الأحد ، رب العالمين ، ورب المشرقَيْن والمغربَيْن ، إلا أن يقول : إنه نسخة مستمَدة من عقائد عرب الجاهلية ، أو عقائد الفرق الكتابية التى خالطت عقائد الجاهليين ، على النحو الذى وصفه « جورج سيل » فى مقدمته لترجمة القرآن الكريم ، فإن العقيدة الإلهية التى تُستمَد من تراث الجاهليين ، لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية ، ولا مفخرة أظهر من مفاخر الأحساب ، ولن تخلو من لوثة الشرك ، ولا من عقابيل العبادات التى امتلأت بالخبائث ، وحلَّت فيها الرُقىّ والتعاويذ محل الشعائر والصلوات .

« ومعجزة المعجزات ، أن الإسلام لم يكن كذلك ، بل كان نقيض ذلك فى صراحة حاسمة جازمة ، لا تأذن بالهوادة ولا بالمساومة ، فما من خُلَّة

---

(١) البقرة : ١٣٤ — (٢) الإسراء : ١٥ — (٣) النمل : ٣٠

(٤) فصلت : ٤٦ — (٥) الحديد : ٣ — (٦) الأنعام : ٨٠

(٧) يس : ٧٩

كانت أبغض إليه من خُلّة العصبية الجاهلية ، والمفاخرة الجاهلية ، والتناحر الجاهلى على فوارق الأنساب والأحساب .

« فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذى ينكر العصبية .

« ومن جوف بلاد القبائل والعشائر ، خرج الدين الذى يدعو إلى إلٰه واحد « **رب العالمين** » ورب المشرق والمغرب ، ورب الأمم الإنسانية جمعاء ، بغير فارق بينها ، غير فارق الصلاح والإيمان .

« على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الأديان فى الغرب ، يطلقون نعوتهم على الإسلام سماعاً - فيما يظهر - من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية ، التى لا يبدو منها أنهم كلّفوا عقولهم جداً وحقاً - أن تلم إلمامة واحدة بهذا الدين فى جملة أو تفصيل .

« ففى كتاب من أحدث الكتب عن أديان بنى الإنسان ، ألّفه أستاذ للفلسفة فى جامعة كبيرة ، يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات - بعد الإشارة إلى السيف والعنف ، والاقتباس من النصرانية والصابئية والمجوسية : « إن محمداً أسبغ على **الله** - ربه - ثوباً من الخُلُق العربى ، والشخصية العربية . . . » [1] .

« ويقول المؤلف : « إن الحقيقة التى أقررها هنا ، تتجلى للباحث كلما تقدَّم فى دراسة هذا الدين العربى ، وهذه الشخصية الإلهية العربية » .

« بهذا النعت التقليدى ينعت المؤلف إلٰه الإسلام ، بعد أن تقدَّم فى دراسته - على حد قوله - فماذا كان عساه قائلاً لو أنه لم يسمع باسم الإسلام إلا على الإشاعة من بعيد ؟!

---

(١) لعله يكون أكثر إغراباً لو استشهد على ما ذهب إليه بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (الكهف : ١٠٩) .

حسداً حملنه من أجلها   وقديماً كان فى الناس الحسد

« لعله لم يكن بحاجة إلى التقدم وراء البسملة فى سورة الفاتحة ، ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين ، وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه . .

« ولعله كان يُحسن المقارنة جداً ، وحقاً ، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات إلٰه الإسلام ، وقارن بينها وبين دين الصفات التى يختارها غير المسلمين ، فلا يذكرون الله فى مفتتح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت .

« فالله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، لم يكن نسخة محرَّفة من صورة « الله » فى عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الأصل الذى يثوب إليه مَن ينحرف عن العقيدة فى الإلٰه ، كأكمل ما كانت عليه ، وكأكمل ما ينبغى أن يكون .

« ومن ثَمَّ كانت هذه العقيدة الإلٰهية فى الإسلام ، مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات ، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية .

« فهى عقيدة كاملة ، صحَّحت وتممت عقيدة الهند فى الكارما والنرڤانا ، لأنها عقيدة فى خواء ، أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة ..

« وهى عقيدة كاملة ، صحَّحت وتممت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين ، لأنه كان على خطأ فى فهم التجرد والتنزيه ، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق ، كالعدم المطلق فى التجرد من العمل ، والتجرد من الإرادة ، والتجرد من الروح .

« ودين يصحِّح العقائد الإلٰهية ، ويتممها فيما سبقه من ديانات الأُمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها ، تُراه من أين أتى ، ومن أى رسول كان مبعثه ومدَّعاه ؟

« من صحراء العرب .

« ومن الرسول الأُمِّى بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات .

« إن لم يكن هذا وحياً من الله ، فكيف يكون الوحى من الله ؟ !

« ليكن كيف كان فى أخلاد المؤمنين بالوحى الإلهى حيث كان ، فما يهتدى رجل « أمىٌّ » فى أكناف الصحراء إلى إيمان بالله ، أكمل من كل إيمان تقدَّم ، إلا أن يكون ذلك وحياً من الله . وإنه لحَجْر على البصائر والعقول ، أن تنكر الوحى على هذه المعجزة العليا ، لأنه لا يصدق عليها فى صورة من صور الحدس أو الخيال » . . (انتهى كلام العقاد)

* * *

وبعد ..

فمن العجيب الغريب المضحك المبكى ، أن نضطر لمقارنة عقيدة الإسلام فى باب الربوبية ، مع سخافات البَشر فى هذا الباب ! !

أليس عجيباً أن نقارن ديانة فيها مثل هذا النص : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ﴾ (١)

بديانة تقول عن الله : بأنه يجامع ، أو يصارع خلقه ، ويكادون يغلبونه ، أو أن له ولداً ، أى وزوجة . مثل هذا الكلام التافه يمكن أن يُقارَن به ذلك الكلام العظيم ؟ !

إن أى نص عن الذات الإلٰهية فى الإسلام تدرسه ، يدلك على أن هذا النص لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ذاته ، كلاماً أو وحياً .

ولكن ما العمل إذا ألف الناس العمى لدرجة أنهم لا يحبون معه الإبصار ؟ !

* *

لقد درسنا ظواهر الكون ، فدلتنا على صفات الله ، فلما عدنا إلى كتاب الله ازداد الفهم عمقاً ، وأدركنا من أبعاد الموضوع أكثر ، ولا شك أنه لولا أننا مسلمون ، قد استقرت فى أذهاننا معرفة الله كأثر عن الوحى ، ما سرنا فى هذا البحث على مثل هذا السير ، فدين يأخذ بيد العقل على هدى العلم ، ليدله على أن يربط الفروع بأصولها ، ويرجع بالأصول إلى مصدرها ، دين لا يمكن أن يكون إلا حقاً .

* *

---

(١) لقمان : ٢٧

إن هناك ناساً لا يسمعون ولا يعقلون ولا يفكرون ، عقائدهم سخيفة ، فإذا ما دُعوا إلى مثل هذا الصفاء ، وإلى مثل هذا المنطق الحكيم ، رفضوه لأنهم درجوا على عقيدة خاطئة ، وألفوها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث ، فهؤلاء كما قال الله عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم ﴾ [1] . . كل أصحاب عقيدة باطلة يقولون هذا . أفما ينبغي لهؤلاء أن يعيدوا النظر ؟ ! فالقضية ليست قضية خيار ، وإنما هي قضية مصير الإنسان : إما إلى الجنة ، أو إلى نار ستحرقهم مع آبائهم أبداً ، إن لم يهتدوا .

* *

إن الوثنيين ، والمشبِّهين والمتنقصين ، والذين يعطون صفات الله لخلقه ، من غفران ذنب ، أو تفريج كرب ، أو إجابة دعاء ، أو تمجيد وتعظيم . إن الذين لم يعرفوا صفات الله العليا ، وأسماءه الحُسْنَى ، ووجوده الكامل ، وهيمنته الدائمة ، وإمداده العظيم ، وتدبيره لشئون خلقه ابتداءً وانتهاءً . إن الذين لا يرون آيات الله في كل ما خلق . هؤلاء كلهم لا يعرفون الله .

إننا نحن المسلمين فقط نعرف الله حق المعرفة ، وننزهه حق التنزيه ، ونعبده حق العبادة ، ومَن قرأ الجزء الثاني والثالث من هذا الكتاب ، سيرى حقاً عجباً ، لا يمكن أن يكون ، لولا أن الله عَزَّ وجَلَّ ، هو الذي أوحى ، ويسَّر ، وأراد ما أراد لهذا الرسول وبهذا الدين .

* * *

---

(١) الزخرف : ٢٢

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الإيداع ١٠٠٧٩ / ٩٤
I. S. B. N 977 - 225 - 062 - 4